الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٦ — ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 176

Lundi - 16 - 11 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٧٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ رمضان سنة ١٣٥٥ — ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

مشروع خطير

تطعيم الأدب العربى

كانت اللغة العربية فى عصر من عصورها مجمع الثقافات ، وملتقى المدنيات ، ومنتهى الألسن ؛ وكان الأدب العربى فى حدود مراميه التعبيرَ العام عن خوالج الإنسانية فى أكثر بقاع الأرض ، لأن الإسلام الذى جمع قلوب الأمم على قرآنه ، جمع ألسنتهم على لسانه ، فلم تكن هناك فكرة تجول فى ذهن كاتب ، ولا صورة تتمثل فى خاطر شاعر ، إلا وجدت فى هذا الخضم المحيط صدفة تستقر فيها . فلما تحولت عن مذاهبه الأنهار ، وجفَّت على جوانبه الروافد ، عاد كالبحيرة المحدودة الراكدة ، لا يمدها إلا قطرات المطر ودفعات السيل فى الحين بعد الحين . فإذا أردنا لأدبنا أن يتسع فى حاضره كما اتسع فى ماضيه ، فليس لنا اليوم غير سبيل الأمس : نرفده بآداب الأمم الأجنبية ، ونطعّمه بأنواع الفنون الأوربية ، ونصله بتيار الأفكار الحديثة ، ونخلى بينه وبين الحرية ليزدهر وينتشر ويساهم الآداب العالمية فى تبليغ رسالة الجمال والخير والحق .

ذلك كلام يدخل فى بداهة العقل لوضوحه ، ويجرى فى قوانين الطبع لضرورته ؛ فإذا عدنا إليه فإنما نعود لنحتال فى تنفيذه لا لنلح فى تعزيزه . وقد رغبنا إلى الحكومة فى عدد مضى أن تنشئ داراً للترجمة تنقل آداب الأمم الكبرى نقلاً صحيحاً ، ثم تنشرها كما تنشر دار الكتب الأسفار العربية القديمة ؛ والأمر فى ذاته قريب المنال قليل المؤونة ، ولكن رغبة الفرد إلى الحكومة تكون فى الغالب أملا يتنفس به الصدر ولا يتعلق به صدق ولا ظفر . رغبنا إلى الحكومة هذه الرغبة اليائسة وما كنا نعلم أن ترجمة الآداب الغربية على خطة مرسومة هى مشروع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر قد أنضجت له الرأى ووجَّهت إليه العزيمة . ولجنة التأليف والترجمة والنشر فرقة من فرق الجنود المجهولة ، تجاهد فى صمت ، وتكابد فى صبر ، وتبذل فى إيثار . وقد طوت فى جهاد الجهالة اثنتين وعشرين سنة فلم تتخزل من صعوبة ، ولم تنهزم عن تضحية ، ولا تزال تضطلع وحدها بحماية الكتاب وقد غلبه على مكانه الطفيليات العابثة من المجلات الهازلة والنشرات الهزيلة

تريد لجنة التأليف والترجمة والنشر أن تنقل إلى العربية آداب اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والايطالية ، كل أدب منها فى عام . وستنتقى لكل أدب عشرة أو أكثر من أعلام المترجمين الذين حذقوا أدب اللسانين المترجِم والمترجَم فى دقة فهم وجمال صياغة . ثم تجعل مع هؤلاء أديباً من أهل اللسان الأوربى يتولى اختيار الكتب الخالدة لكل كاتب أو شاعر ، ثم يكون مرجعاً للمترجمين فيما عسى أن يغمض عليهم من خفايا الكنايات وأسرار الجمل ؛ فاذا خرج الكتاب من الترجمة والمراجعة انتهى إلى أستاذين من أساتذة البيان العربى فيصقلان أسلوبه ويهذبان لفظه ؛ ثم تنشر مطبعة اللجنة هذه الكتب تباعاً على غرار واحد وشكل رائق وتصحيح دقيق . واللجنة تهيئ الأسباب لتبدأ عما قريب فى إخراج الأدب الانجليزى ، حتى إذا فرغت منه اشتغلت بغيره . والتعليق على مثل هذا المجهود الخطير المعجز لا يكون بغير الدعاء إلى الله أن يقرن العمل بالتوفيق ويقطع الأمل بالفوز . وليس بعد الله من يعين على هذا الجهد إلا الحكومة . فان الجمهور القارئ فى مصر وفى غير مصر قليل ، وأكثر هذا القليل يكاد لا يعرف طريق المكتبة ولا يألف صحبة الكتاب . فترك اللجنة إلى أهواء القراء معناه حبس أموالها القليلة فى المخازن والمكاتب فلا تقلبها فى تأليف ولا نشر ؛ والحكومة التى تساعد المدارس والجامع والصحف ، وتعول المجمع اللغوى ودار التمثيل ودار الكتب ، لا تستطيع أن تضن بالمساعدة السخية على هذا المشروع الضخم تقوم به صفوة من أقطاب الثقافة فى هذا البلد وقد كان من واجباتها الأولى أن تفكر فيه وتنهض به

* * *

ولقد كان من فضل الله على (الرسالة) أن تحمل عِبئها من هذا العمل الجليل المثمر ، فقد أمضت النية على أن تصدر بجانبها أختها (الرواية) وهى مجلة أسبوعية تعتمد على نقل ما راع وخلد من بدائع الأدب الغربى فى القَصص على أوسع معانيه من الأقاصيص والروايات والمذكرات والاعترافات والرحلات والسير . وسيكون شعار (الرواية) الجمال فى الأسلوب ، والحسن فى الاختيار ، والنبل فى الغرض ؛ فترضى الذوق كما ترضى (الرسالة) العقل ، وترفع القصة كما ترفع (الرسالة) المقالة ، وتسجل أدب الغرب كما تسجل (الرسالة) أدب العرب

ولا جرم أن الأدب العربى سيكون له فى كل عام مما تنتجه (اللجنة) وتترجمه (الرواية) وتنقله الصحف الأخرى ، مورد ثرُّ الينابيع ، فياض الجوانب ، من العبقريات الممتازة والقرائح السمحة ، يحيى مواته ، ويزكى نباته ، ويجعل من سهوبه الفِيح جناناً ناضرة ، فيها متاع الأذن بالتغريد والشدو ، ولذة العين بالرواء والبهجة ، وشهوة النفس بالزكاء والعطر ، وسعادة العالم بالسلام والوئام والمحبة

احمد حسن الزيات

٣ـ القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فرمَقها وهي تلتفت إليه التفات الظبية بسواد عينيها بجمل سوادهما الجميل في النظرة الواحدة نظرتين لعاشق الجمال، تقول إحداهما: أنت، وتقول الأخرى: أنا؛ ثم أراها وقد كسرَت أجفانها وتفترتْ في يدي الممثل العشيق وأفصح منظرها ببلاغة ... ببلاغةِ جسم المرأة المحبوبة بين ذراعيْ من تحبه؛ ثم اختَلجت وصوَّبتْ وجهها، وأهدَفَت شفتيها؛ وتلقَّت القبلة

وكان به منها ما الله عليم به، فانبعثت من صدره آهةٌ مُعولةٌ تئن أنيناً، غير أنها كلمته بعينيها أنها تقبله هو؛ فلا ريب قد حملت اليه إحدى النسمات شيئاً جميلاً عن ذلك الفم لمست به النفسُ النفس، والقبلة هي هي ولكن وقع خطأ في طريقة إرسالها ...

ليس تحت الخيال شيء موجود، ولكنَّ الخيال المتسرِّح بين الحبيبين تكون فيه أشياء كثيرة واجبة الوجود، إذ هو بطبيعته مجرى أحلام من فكر إلى فكر، ومسرحُ شعور يصدر ويرد بين القلبين في حياة كاملة الاحساس متجاوبة المعاني. وبهذا الخيال يكون مع القلبين المتحابَّين روحٌ طبيعيٌّ كأنه قلب ثالث ينقل للواحد عن الآخر، ويصل السرَّ بالسر، ويزيد في الأشياء وينقص منها، ويدخل في غير الحقيقي فيجعله أكثر من الحقيقي. ومن هنا لم يكن فرح ولا حزن، ولا أمل ولا يأس، ولا سعادة ولا شقاء، إلا وكل ذلك مضاعف للمحب الصادق الحب بقدر قلبين؛ والذين يعرفون قُبلة الشغف والهوى يعرفون أن العاشق يقبّل بلذة اربع شفاه

* * *

وانسدلت بعد هذه القبلة ستارة المسرح، وغابت الجميلة المشوقة غيبة التمثيل فقلت لصاحب القلب المسكين: إن روحيكما متزوجتان ... قال: آه، ومدَّها من قلبه كأنه دَنِفٌ سقيم

قلت: وماذا بعد آه؟

قال: وماذا كان قبلها؟ إنه الحب فيه مثل ما في (عملية جراحية) من تنهدات الألم ولذعاته، غير أنها مفرقة على الأوقات والأسباب مبعثرة غير مجموعة. «آه»؛ هذه هي الكلمة التي لا تفرغ منها القلوب الانسانية، وهي تقال بلهفة واحدة في المصيبة الداهمة، والألم البالغ، والمرض المدنف، والحب الشديد. فحينما توشك النفس أن تختنق تتنفس «بآه».

قلت: أما رأيتها مرة وقد أوشكت نفسها أن تختنق ...؟

قال: لقد هِجْتَ لي داءً قديماً؛ إن لهذه الحبيبة ساعات مغروسة في زمني غرس الشجر، فبين الحين والحين تثمر هذه الساعات مرها وحلوها في نفسي كما يثمر الشجر المختلف؛ ولقد رأيتها ذات مرة في ساعة همها؛ ثم ضحك وسكت

قلت: ياعدوَّ نفسه! ماذا رأيت منها؟ وكيف أراك الوجدُ ما رأيتَ منها؟

قال: أتصدّقني؟ قلت: نعم.

قال: رأيت الهمَّ على وجه هذه الجميلة كأنه همٌّ مؤنَّث يعشقه همٌّ مذكر . . . فله جمال ودلال وفتنة وجاذبية، وكأن وجهها يصنع من حزنها حزنين: أحدهما بمعنى الهم لقلبها والآخر بمعنى الثورة لقلبي.

قلت: ياعدو نفسه هذا كلام آخر؛ فهذه امرأة ناعمةٌ بضَّةٌ مطوى بعضُها على بعضها، لَفَّاء من جهة هَيفاء من جهة، ثقيلةُ شيءٍ وخفيفةُ شيء، جمعت الحسنَ والجسم وفنًّا بارعا في هذا وفنًّا مُفْردا في ذاك، وهي جميلةُ كلِّ ما تتأمل منها، ساحرةُ كلِّ ما تتخيل فيها، وهي مزَّاحة دَحْدَاحة [1] وهي تطالعك وتطمعك، وأنت امرُؤٌ عاشق ورجل قويٌّ الرجولة؛ فالجميلة والمرأة هما لكَ في هذا الجسم الواحد، إن ذهبتَ تفصلهما في خيالك امتزجتا في دمك؛ ولو أمسكتْ آلةُ التصوير نظراتك إليها لبانت فيها أطرافُ اللهب الأحمر مما في نفسك منها. ولعَمري لو مرت عربة تَدْرجُ في الطريق ونظرتَ إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة المحتَبَسة المكفوفة [2] لظننتك

(١) هذه كلمة استعملها بعض المولدين في معنى الظريفة (المدردحة) وليس كذلك معناها في اللغة، ولكن الاستعمال صحيح عندنا واللغة لاتأباه

(٢) يستعمل الكتاب في هذا المعنى لفظ (المكبوتة) وهو تعبير ضعيف والأفصح ماذكرنا هنا

سترى العجلة الخلفية عاشقاً مهتاجاً يطارد العجلة الأمامية وهي تفر منه فرار العذراء . . .

* * *

فضحك وقال : لا ، لا . إن نوع التصور لأنسان هو نوع المعرفة لهذا الانسان ، ومن كل حبيب وحبيبة تجتمع مقدمة ونتيجة بينهما تلازم في المنى ؛ والمقدمة عندي أن إبليس هنا في غير إبليسيته ، فلا يمكن أن تكون النتيجةُ وضعَه في إبليسيته . وما أتصور في هذه الجميلة إلا الفنَّ الذي أسبغه الجمال عليها ، فهي في معرفتي وخيالي كالتمثال المبدَع بداعة لا يستطيع أن يعمل عملاً إلا إظهارَ شكله الجميل التام حافلاً بمعانيه .

ليست هذه المرأة هي الأولى ولا الثانية ولا الثالثة فيمن أحببت ؛ إنها تكرار وإيضاح وتكملة لشيء لا يكمل أبداً ، هو هذه المعاني النسوية الجميلة التي يزيد الشيطانُ فيها من عشق كل عاشق . إن بطن المرأة يلد ، ووجه المرأة يلد

قلت : هذا إن كان وجهها كوجه صاحبتك ، ولكن ما بال الدميمة ؟

قال : لا هذا وجهٌ عاقر ...

* * *

قلت : ولكن الخطأ في فلسفتك هذه أنك تنظر إلى المرأة نظرةً عملية تريد أن تعمل ثم تمنعها أن تعمل ؛ فتأتي فلسفتك بعيدة من الفلسفة ، وكأنك تغذو المعدةَ الجائعة برائحة الخبز فقط

قال : نعم هذا خطأ ، ولكنه الخطأ الذي يخرج الحقائق الخيالية من هذا الجمال ؛ فاذا سخرتَ من الحقيقة المادية بأسلوب فبهذا الأسلوب عينه تُثبت الحقيقة نفسها في شكل آخر قد يكون أجمل من شكلها الأول

أتعلم كيف كانت نظرتي الى نور القمر على هذه والى حسن هذه على القمر ؟ إن القمر كان يُنسيني بشريَّتَها فأراها متممة له كأنه ينظر وجهه في مرآة ، فهي خيال وجهه ؛ وكانت هي تُنسيني مادية القمر فأراه متمماً لها كأنه خيال وجهها

أتدرى ما نظرةُ الحب ؟ إن في هذا القلب الانساني شرارةً كهربائية متى انقدحتْ زادت في العين ألحاظاً كشَّافة وزادت في الحواس أضواءً مُدرِكة ، فينفذ العاشق بنظره وحواسه جميعاً في حقائق الأشياء فتكون له على الناس زيادة في الرؤية وزيادة في الادراك يعمل بها عملا فيما يراه وما يدركه . وبهذه الزيادة الجديدة على النفس تكون للدنيا حالةٌ جديدة في هذه النفس ؛ ويأتي السرور جديداً ويأتي الحزن جديداً أيضاً . فألفُ قُبلة يتناولها ألف عاشق من ألف حبيب ؛ هي ألف نوع من اللذة ولو كانت كلها في صورة واحدة . ولو بكى ألف عاشق من هجر ألف معشوق لكان في كل دمع نوع من الحزن ليس في الآخر

* * *

قلت : فنوعُ تصورك لهذه الراقصة التي تحبها ، أن إبليس هنا في غير ابليسيته . . . .

قال : هكذا هي عندي ، وبهذا أسخر من الحقيقة الأبليسية

قلت : أو تسخر الحقيقة الأبليسية منك وهو الأصح وعليه الفتوى . . . .

فضحك طويلا وقال : سأحدثك بغريبة . أنت تعرف أن هذه الغادة لا تظهر أبداً إلا في الحرير الأسود ؛ وهي رقيقة البشرة ناصعة اللون فيكون لها من سواد الحرير بياضُ البياض وجمال الجمال . فلقد كنت أمس بعد العشاء في طريقي الى هذا المكان لأراها ، وكان الليل مظلماً يتدجَّى ، وقد لبس وتلبَّس وغلب على مصابيح الطريق فحصر أنوارها حتى بين كل مصباحين ظلمةٌ قائمة كالرقيب بين الحبيبين يمنعهما أن يلتقيا ؛ فبينا أقلِّبُ عيني في النور والغَسق وأنا في مثل الحالة التي تكون فيها الأفكار المحزنة أشدَّ حزناً — إذ رفع لي من بعيد شبحٌ أسود يمشي مِشْيته متفتِّرا قصير الخَطْو يهتز ويتبختر ؛ فتبصرته في هيئته فما شككت أنها هي ، وفتحت الجنة التي في خيالي وبرزت الحقائق الكثيرة تلتمس معانيها من لذة الحب ، وكان الطريق خالياً فأحسست به لنا وحدنا كالمسافة المحصورة بين ثغرين متعاشقين يدنو أحدهما من الآخر ، وأسرعت إسراع القلب إلى الفرصة حين تمكن ، فلما صرت بحيث أتبين ذلك الشبح

إذا هو . . . إذا هو قسيس . . . .

***

فقلت : يا عجباً ، ما أظرفَ ما داعبك إبليس هذه المرة وكأنه يقول لك : إيه ياصاحب الفضيلة ...

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم فى شغل إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد ؛ وألقى الشيطانُ على لسانى فقلت لصاحبنا : مايمنعك أن تبعث اليها فلاناً يستفتح كلامها ثم يدعوها فليس بينك وبينها كلمة تعالَىْ أو تفضَّلى

قال : كلا ، يجب أن تنفصل عنى لأراها فى نفسى أشكالاً وأشكالاً ؛ ويجب أن تبتعد لألمِسَها لمساتٍ روحية ؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق فيها علم قلبى ؛ ويجب أن تدعَ جسمها وأدعَ جسمى وهناك نلتقى رجلاً وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة . بهذا الفهم أنا أكتب وبهذه الطبيعة أنا أحب

ماهو الجزء الذى يفتننى منها ؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه

وما هو هذا الكل ؟ هو الذى يفسر نفسه فى قلبى بهذا الحب

وماهو هذا الحب ؟ هو أنا وهى على هذه الحالة من اليأس

نعم أنا بائس ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى فى الفن لا يكون هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم . والحبيب الذى لا تناله هو وحده القادرُ قدرةَ الجمال والسحر ؛ يجعلك لا تدرى أين يختبىء منه جماله فيدعك تبحث عنه بلذة ؛ ولا تدرى أين يُسفِر منه جماله فيدعك تراه بلذة أخرى . أنا أنضج هذه الحلوى على نار مشبوبة ؛ على نار مشبوبة فى قلبى

قلت : يا صديقى المسكين هذه مشكلة عرضتْ بها المصادفة وستحلها المصادفة أيضاً . وما كان أشد عجبى إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا (المشكلة) مقبلة علينا . . .

أما هو : أما صاحب القلب المسكين ؟

(طنطا) « لها بقية » مصطفى صادق الرافعى

(وحى القلم) أوشكت المطبعة أن تتم طبع هذا الكتاب فنرجو من كل مشترك غيّر عنوانه أن يكتب إلينا بعنوانه الجديد (الرافعى)

المشيرة عايدة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قلما يستطيع الانسان أن يضع نفسه موضع إنسان آخر فى أمر يعنيه ، ولو كان هذا يسعه فى كل حال لكان الأرجح أن يضحكه الذى يمضه ويثقل عليه أو يبكيه . — فى هذا كنت أفكر وأنا أسمع قصة صديق وكان قد دخل على وهو ينفخ ويمسح العرق المتصبب — عرق الخجل لا التعب والنصب ، فانه صاحب سيارة فخمة ضخمة لا تتعب الراكب ولا تكلفه جهداً غير النظر إلى الطريق وسكون الأعصاب واتزانها وهو يمرق بها بين المارة الذين لا يحلو لهم السير إلا وسط الشارع كأنما كان الشارع متنزهاً عاما وكأنما ينبغى على سائق السيارة أن يسير بها فوق الرصيف ليفسح لهم .

وكان يحاول أن يقص على القصة وهو يمسح وجهه بالمنديل فكان نصف ما يقول يخرج مخنوقا فى مطاوى المنديل فقلت له :

« هلا انتظرت حتى ينشف هذا العرق »

فغضب وقال : بلهجة المعاتب « وأنت أيضاً . . ؟ ؟ »

فقلت : له وأنا أحاول أن أفئ به إلى الرضى « إنما أردت أن أقول إن المنديل يغيب فيه بعض الكلام فيجيء ما أسمع غير مفهوم . . على كل حال يحسن أن تبدأ من البداية »

قال : « البداية ؟ . يا خبر ! »

قلت : « عمن تتحدث ؟ . . يخيل إلى أنك ذكرت اسماً . . . »

قال : نعم . . عايدة . . »

قلت : « آه . . عايدة ؟ ؟ ومن عسى أن تكون هذه المجرمة ؟ ؟ »

قال : ألا تعرفها ؟ . هذا مدهش . . كيف يمكن . ؟ »

قلت : « يا أخى لا تغضب . . إنك تعرف أن ذاكرتى خوانة . . وليس من النادر أن أنسى أسماء من أعرف من الناس . . فاذا سمحت بأن تذكرنى بها فانى أعدك أن . . »

فقال : « أوه . . إنك تمزح ولاشك . . لا يمكن أن تجهلها »

قلت : أشكر لك هذه الثقة بسمة معارفى . . ولكنى أؤكد لك أن الأسم لا يحرك فى نفسى أى ذكرى . . . لا يثير أى اختلاج . . وليس هذا لأنها لا تستحق الذكر بل لأن الأسماء تقع من رأسى فى غربال واسع الخروق »

فاقتنع وشرع يصفها لى فهززت له رأسى وقلت : « خير من هـذا الوصف الذى لا يصف شيئاً أن تقول لى : أين تسكن أو أن تذكر لى بقية اسمها ... شىء من هذا القبيل ... أما أن تظن أنه يكفى أن تقول : « بنت جميلة هيفاء ممشوقة القوام .. فاسمح لى أن أؤكد لك أنك .. »

فرمانى بنظرة وأومأ إلى أن أقصر ، فأمسكت إشفاقا عليه . وبلع ريقه ثم أخذ يصف لى بيتها فضقت ذرعا بهذا الحال وقلت له : « يا أخى ما حاجتى إلى كل هذا ؟؟ وكيف تظن أن فى وسعى أن أعرف إنسانا من قولك إن لبيته شرفتين وأربع نوافذ أو عشرا وأن فيه خمس غرف أو ستا .؟ إنما أسألك عن الموقع ... عن الشارع أو الحارة أو الدرب ... ماذا جرى لعقلك اليوم »

وبعد لأى ما استطعت أن أعرف الشارع الذى فيه بيتها فتذكرت

وكانت عايدة هذه — كما قال — جميلة ، ولكن فى قولى « جميلة » اقتصاداً — أو إن شئت فقل إيجازاً مخلا — وما أكثر الجميلات ولكن ما أقلهن أيضاً . والجميلات التى تقع العين عليهن أكثر من أن يأخذهن إحصاء ، ولكن اللواتى يقعن من نفس المرء وتثبت على صفحة القلب صورهن — هؤلاء هن القليلات وعايدة هذه إحداهن . وإنه لسر ولغز لا يحل أنها بقيت إلى الآن بلا زواج ، فما تنقصها لا الرشاقة ولا الظرف ، ولا أنس الحديث وعذوبته ، ولا دماثة الطباع وحلاوتها ، ولا وفاء الثقافة ولا حسن التدبير وكياسة التصرف . وكانت — ولعلها لا تزال — تلازم شرفتها ولا تكاد تغادر بيتها إلا لضرورة ملحة أو حاجة ماجئة ، ولا تخرج حين تخرج إلا ومعها أبوها أو أمها أو واحد غير هؤلاء من أهلها . ولعل هذا هو الذى زهد فيها ونفر منها فما أدرى . على أنى أعرف أن هذا الحبس قد أغراها بضروب من العبث ، فهى لا تزال فى شرفتها فى حفل من الزينة أو فى قميص نوم هفهاف يتركها عارية النحر إلى الثديين ، مكشوفة الذراعين إلى ما فوق الكتف ، أو فى منامة — بيجامة — من الحرير الرقيق محبوكة التفصيل على قدها الممشوق وجسمها الرخص ، وإذا كانت لا تخرج وكان فى البيت من يغنيها عن العمل ويعفيها من مشقاته ، وكانت الشقة على اتساعها أضيق من أن تكفى فتاة متعلمة حديثة الآراء فأنها لا تكاد تفارق الشرفة — فيها تقعد لتروح عن نفسها ولتقرأ إذا شاءت ، ولتنظر إلى الرائحين والغادين وتتسلى بالمناظر التى تأخذها عينها ، وقد ألفت ذلك فهى لا تستطيع أن تفطم نفسها عنه ؛ وأحسب أنها لو صرفها أهلها عن الشرفة لجنت ، فما لها عزاء غيرها ولا سلوى سواها ، وإذ كانت ترى كل ما يرى من الشرفة ولا يفوت عينها المفتوحة ما يقع أحياناً بين بعض الرجال والنساء فى حيها المكتظ بالناس وكانت لا تخالط إلا أهلها ، فليس من المستغرب — بل هذا لا غيره هو المتوقع — أن يغلبها صباها أحياناً فيصـدر عنها ما قد يعده المتشددون — وما أقلهم فى هذا الزمان — مخالفاً لمقتضيات الحشمة ، وما هو كذلك ؛ ولو قضى على شاب أن يحبس فى بيت ولم يؤذن له فى أكثر من النظر من الشرفة على حين يرى أنداده جميعاً يخرجون متى شاءوا إلى حيث يشاءون لـكان من المحقق أن ينتحر ، ولـكن عايدة لم تنتحر لأن نشأتها جعلتها تألف هذه الحياة ، وان كانت لا تعزيها عن الحرمان مما ترى أترابها ينعمن به ، وأقله أن تزور أترابها كما يزرنها ، وحدهن ، وفى غير حاشية من الأهل والآباء والأمهات

ولـكنى استطردت عن حكاية صديقى فلأعد إليه ، قال : «لعلك تذكر أنى كنت جارا لهذه الفتاة — أعنى كنت أسكن بيتاً يقابل بيتها ، وكان لا بد أن أراها وأن أعجب بها فأنها كما يقول الشاعر : « بيرنز » — (يكفى أن تراها لتعشقها) .. »

فقاطعته عامداً وقلت : « عفواً !! لو كان بيرنز قد قال هذا لما كان فى قوله ما يستحق الذكر ، ومن الصعب ترجمة هذا البيت من شعره ، ولـكنى أظن أن الذى أراده هو أن معنى أن تراها أن تحبها . . أى أنه لا حيلة لمن يراها إلا أن يحبها . . على كل حال تفضل »

فنفخ وتأفف وقام وتمشى ثم عاد إلى مجلسه فقال له صديق غيرى

يستطيع أن يبيحه دخلته

وقال بعد هنيهة : « طيب . . قل ما بدا لك . . المهم أنى أعجبت بها . . شغلت بها زمناً حتى لكدت أهمل عملى وأسىء إلى نفسى . . ويجب أن أعترف لك بالفضل فى رد ما ذهب من عقلى ... »

فهممت بأن أقول شيئاً مثل « العفو » أو ما هو من هذا بسبيل ، ولكنه أشار إلى فرددت الكلمة التى كانت على لسانى ومضى هو فى كلامه فقال : « وتعلم أنى تركت البيت إلى سواه فراراً منها »

قلت : « أعلم ذلك وأظن أنى أشرت به فأن البعيد عن العين بعيد عن القلب »

قال : ولكنى أمس مررت من هناك ووقفت أتحدث إلى البواب زمناً وأنا أرجو أن تلتفت إلى ، فلما لم تفعل شرعت أنفخ فى البوق وعينى على الشرفة ، فرمت إلى نظرة وضيئة وابتسمت ، فكدت أطير من الفرح ، وكان البواب يحادثنى وأنا لا أصغى إليه ولا أدرى ما ذا يقول ولعله كان يرد على كلام لى نسيته ، فما كان لى غاية إلا أن أجمل لوقوفى مسوغاً فى نظر البواب . ولما كان البواب لا يكف عن الكلام وكان ينتظر منى أن أقول شيئاً فقد طلبت منه أن يجيئنى بقليل من الماء أفرغه فى جوف السيارة وما كانت بها حاجة إلى ذلك ، ولكن هذا ما خطر لى أن أصرفه عنى به فمضى عنى فرفعت عينى إليها فألفيتها لا تزال تبتسم فتظاهرت بأنى أصلح البوق ولكن عينى كانت عليها ، فأشارت إلى بيدها أن أمضى إلى آخر الشارع وأن أنتظرها هناك فأسرعت إلى مقعد القيادة ولم أنتظر البواب المسكين الذى أرسلته ليجيئنى بالماء وذهبت فى الطريق الذى أشارت إليه ووقفت أنتظر »

فقلت : « على أحر من الجمر ؟ »

قال : « لا تتهكم . . إن المسألة ليست مزاحاً . . نعم كنت على أحر من الجمر . . . فماذا تريد ؟ »

قلت : « لا شىء . . إنما أنتظر أن تذكر بيتاً لشاعر . . ألا يحضرك شىء من محفوظك . ؟ »

قال بلهجة جادة لم أكن أنتظرها : « أنا أقول لك ماذا كان يجول فى خاطرى . . لقد كنت أمنى النفس بوشك اللقاء الذى ظللت أرجوه عاماً كاملاً ولم يصرفنى عنه سواك . . . وكان لك حق . . الآن فقط أدركت أن الشباب يحتاج إلى التجربة التى تغرى بالتؤدة وتقص أجنحة الخيال . . كنت أحلم بأن أراها إلى جانبى فى السيارة وأحدث نفسى بقربها ؛ ولا أكتمك أنى ذهبت أنشىء أحاديث بينى وبينها .. أحاديث كانت تبدأ بالعتاب وتنتهى بالقبلات والعناق . . وكنت أتصورها تدنى ساقها منى — عفواً بالطبع — فأغتنم الفرصة وأدنى أنا أيضاً ساقى من ساقها فتنأى بها فأرد ساقى على مهل كأن الأمر كله جاء عفواً ، ثم نعود إلى هذا التدانى ولا تبعد عنى فى هذه المرة بل تبقى ساقها ملاصقة لساقى فأنعم بهذا القرب الذى لم أكن أطمع فيه بل الذى قطعت الأمل من إمكانه فى هذه الدنيا . . ونذهب إلى مكان خلوى . . وكان خيالى يتشبث بأن يكون المكان خلوياً لا يخلو من أنس ولكنه لا يبلغ من ضجة الناس وزحامهم فيه أن يعكر وجودهم الصفو وينغصه ، فاذا بلغناه وقفنا وطلبنا شيئاً نبل به ريقنا ويدور الحديث بغير انقطاع ، كما لا بد أن ينقطع والسيارة تخطف فى الطريق ، وتلتقى العين بالعين ويحن القلب إلى القلب وتتصل الأيدى وتتداخل الأصابع وتسرى الوقدة منها إلىّ ، ومنى إليها ، فتتلامس الشفاه ويستريح الصدر إلى الصدر ويحف ذراعى بخصرها ويحيط ذراعها بعنق ، ثم نتباعد ونتنهد وقد شفى كل منا بعض ما يجد وأوحى بشىء مما يجن فى تلك القبلة الطويلة التى يفرغ فيها روحه ويفضى بشوقه وصبوته . . . وكنت على استغراق هذا الحلم اللذيذ لمشاعرى وحواسى أنظر إلى الطريق ولا يفوتنى أحد ممن يمشون فيه . . . ولم يكن حلمى يمنعنى أن أنظر فى الساعة كل بضع ثوان . . وليس أشق من الانتظار ولكنى استطعت أن أنتظر نصف ساعة . . وما أقلها لو فكرت . . . وما نصف ساعة يقضيه شاب فى انتظار الفوز بلقاء ظل عاماً كاملاً يطمع فيه ثم انتهى به الأمر إلى اليأس منه ؟ ؟ ولكنى على هذا مللت وحدثتنى النفس أن شيئاً لابد أن يكون قد عاقها . . ذلك أنى أعلم أنها لا يسهل الخروج عليها وحدها ؛ فقلت لنفسى إنه لا ضرر على كل حال من الرجوع والمرور ببيتها لعلى أرى ما يهدينى إلى سبب هذه الغيبة الطويلة على الرغم من إشارتها الملحة أن أسير بسرعة وأنتظرها فى آخر الطريق ... وأوجز فأقول إنى رجعت من حيث جئت وتظاهرت بأن شيئاً فى السيارة يحوجنى

إلى الوقوف وترجلت وفتحت غطاء المحرك ولكنني لم أنظر اليه وإنما رفعت عيني إلى الشرفة ، وكانت عائدة واقفة فيها ومستندة كمادتها على حافتها وكأنما لا شيء هنالك ... لا أحد ينتظرها في آخر الشارع منذ نصف ساعة ... كأنها لم ترسلني إلى آخر هذا الشارع ... أدهى من هذا يا صاحبي أنها لم تكد تراني حتى كادت تسقط على الأرض من الضحك .. نعم الضحك .. كانت تضحك لأنها ضحكت علي وكلفتني أن أنتظرها وهي لا تنوي أن تجيء ... ماذا يضرها أن أنفلق نصف ساعة ؟؟ ماذا خسرت هي إذا كنت أنا مغفلا ؟؟ ماذا عليها إذا كنت صدقتها وتوهمت أنها تجن لي مثل الذي أجنه لها وأني لبثت نصف ساعة أحلم وأمني النفس بقربها وحديثها وابتسامها وقبلاتها وضماتها وعناقها ؟؟ لا يضيرها شيء بل يسرها أنها ضحكت علي وخدعتني واستغفلتني واستحمقتني وتركتني أرتفع بخيالي إلى حيث شاءت لي السخافة ثم رمت بي إلى الأرض الصلبة . . . هل يعنيها أن عظامي رضت أو أنها تحطمت ؟؟ هل تبالي أن آمالي خابت ؟؟. هل تحفل الصدمة التي لا بد أن أحسها حين أعرف أنها كانت تعابثني وتستغفلني . . ؟؟ »

فقلت له « خذ » ومددت له يدي بسيجارة فتناولها وهو ذاهل ، وأضرمت له عود الثقاب وأنا أرد الضحك الذي أحس أني سأنفجر به ... ونفخ الدخان مرة وأخرى ، وأحسست أنه صار أهدأ أعصابا ، فقلت « الحقيقة أنه » فصاح « بارد ... لا شك في ذلك »

وكان لا بد أن أتألفه بكلام كهذا ليهدأ ثائره ، ثم قلت له وقد آنست منه إقبالا « هي فتاة تعد محرومة من متع الحياة ... كل ما تعرفه من متع الدنيا أن تجلس في الشرفة وتنظر ... أظن أن هذا لا يجوز أن يحسب في المتع ... أولى به أن يزيد شعورها بالحرمان الذي تقاسيه ... بالحجر المضروب عليها ... أهلها ليسوا مخطئين لأنهم لا يعرفون إلا هذا الأسلوب ... وهي ليست مسرفة في احساسها بالحرمان لأنها تعلمت ما لم يتعلمه أبوها وأمها ، وعرفت ما لم يعرفا ... والمجتمع المصري عرف السفور ، ولكنه لا يزال بعيداً عن الحياة الاجتماعية التي تجعل السفور ذا معنى وفائدة . . . والبنت المصرية سافرة ولكنها لا تحيا الحياة الاجتماعية التي يستدعيها السفور . . . فكأنها تسفر لترى بعينها ما هي محرومة منه ... والنتيجة أن الفتاة صارت كالحجلة في حكايات كليلة ودمنة ... لا هي بقيت محبوسة في البيت ، ولا هي فازت بالمتع البريئة التي يقتضيها السفور ... لست أريد أن ألقي عليك محاضرة ، وإنما أريد أن ألفت نظرك إلى أن هذه الفتاة معذورة إذا هي التمست التسلية والضحك . . . وليس من العدل والانصاف أن نأبى عليها أن تضحك ، وأن نحرم عليها أن تتسلى ... وليس من حقك أن تدعي أن لك عليها حقا فما هي بزوجة لك ولا صاحبة ... ولقد عرفت اسمها من أفواه الناس لا من أبيها ولا من أحد من أهلها . . . والمغازلة يا صاحبي مقامرة ... والمقامر يجب أن يحتمل الخسارة كما ينتظر من ملاعبيه أن يحتملوا الخسارة حين يربح هو ... وقد قامرت وخسرت ... ومن واجبك أن تتلقى حظك بابتسامة ... ضع نفسك في مكانها . . . فأنك خليق أن تضحك مما حدث كما أضحك أنا الآن »

وانفجرت بالضحك المكتوم فنهض كالمغضب وقال : « أو تضحك ؟ »

قلت : « سبحان الله . . وهل كنت تنتظر مني أن أبكي ؟ ؟ والله إني لأراها قد عاملتك كما تستحق . . . برافو عليها . . ويا سخيف . . . ألا تعرف أنها لا تخرج قط فكيف صدقت أنها لاحقة بك . . »

قال : « يا أخي ألم أقل لك إنها أشارت إلى أن أسبقها »

قلت : « أنا أيضاً أشارت إلي مرات حين كنت أزورك . . وكنت أرى يدها تشير إلى أن أسبق فأتريث حتى أرى ما يؤيد ما فهمته من هذه الاشارة فكان تريثي يريها أني لست بالخفيف الطياش . . ويخيل إلي الآن أن أساليبها لا تعدد فيها ولا ابتكار . . . مسكينة لا تعرف إلا أن تشير إلى الرجل أن يسبقها فاذا فعل ضحكت . . هذا كل ما عندها على ما يظهر »

قال : « أو تعذرها ؟ . . تلتمس الأعذار لها ؟ »

قلت : « المرة الآتية . . حين تستغفلك مرة أخرى . . اضربها علقة . . قم يا أبله . . واجبك الآن أن تقلب الصورة لترى وجهها الآخر . . صورتك أنت وأنت تنتظر وتحلم ولا تعرف ما أعدت لك . . . اقلب الصورة واضحك . . . »

فسرني أن وقف هنيهة كالمفكر ثم انطلق يقهقه

ابراهيم عبد القادر المازني

نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٤ —

لم يكن عبثاً أن يسمى فلاسفة الاسلام أرسطو عظيم حكماء اليونان والرجل الآلهى ، وأن يرفعوه إلى منزلة لم يسم إليها واحد من الفلاسفة السابقين أو اللاحقين(١) . ذلك لأنهم وجدوا لديه حلولاً لكل مشكلة اعترضتهم ، ووقفوا فى كتبه على مختلف المعلومات التى تاقت إليها نفوسهم . ودائرة المعارف الأرسطية واسعة وشاملة حقيقة بحيث يصادف الانسان فيها كل المسائل الفلسفية مدروسة دراسة مفصلة أو مشاراً اليها على الأقل . ولا تكاد توجد مشكلة من المشاكل الحديثة إلا وفى عبارات أرسطو ما يتصل بها تصريحاً أو تلويحاً . ويمكننا أن نقول إن هناك كتباً دبجها يراع أرسطو على أن تخدم فلاسفة الاسلام أولاً وبالذات . وحظ كتابٍ ما لا يقاس فى الواقع فقط بمقدار ما يحوى من أفكار ، بل يرجع أيضاً إلى ما يحيط به من ظروف ومناسبات . فقد يكون ثانوياً فى نظر مؤلفه ، ولكن الخلف يقدره تقديراً كبيراً لأنه اهتدى فيه إلى أجوبة على أسئلة العصر وحلول لمشاكل الجيل . ومن هذا الباب تماماً رسالتان صغيرتان لأرسطو لا يذكران فى شئ قطعاً إذا ما نسبا إلى مجموعة مؤلفاته ، ومع هذا صادفا نجاحاً عظيماً فى الفلسفة المدرسية الاسلامية ، ونعنى بهما رسالة الأحلام (Traité des Rêves أو Peri Enupnion) ورسالة التنبؤ بواسطة النوم (La divination par le sommeil) ونحن لا ننكر أن هاتين الرسالتين تحتويان على ملاحظات دقيقة فى علم النفس فاقت كل النتائج التى انتهت إليها المدارس القديمة ، وإن تلاميذ أرسطو وأتباعه من المشائين اليونانيين عنوا بهما عناية خاصة . ولاسيما الأحلام وتعبيرها كانت من المسائل التى شغلت العامة والمفكرين فى القرنين السابقين للميلاد والقرون الخمسة التى تليه ، وبعبارة أخرى فى ذلك العصر الذى سادت فيه العرافة والتنجيم . غير أنا نلاحظ أن الرسالتين الآنفتى الذكر أحرزتا فى العالم العربى منزلة لا نظير لها ، ولا نظن أن أرسطو نفسه كان يحلم بها . ويكفى لتعرف هذه المنزلة أن نشير إلى أنهما الدعامة الأولى التى قامت عليها نظرية الأحلام والنبوة عند الفارابى

لا نظننا فى حاجة إلى أن نثبت أن هاتين الرسالتين أرسطيتان ، فأسلوبهما وطريقتهما دليل واضح على ذلك ، وأرسطو يشير إليهما فى بعض رسائله الأخرى الثابتة(١) . وقد تولى زلر (Zeller) من قبل توضيح هذه النقطة بما لا يدع زيادة لمستزيد(٢) . والذى يعنينا هنا أن نبين ما إذا كانت هاتان الرسالتان ترجمتا إلى العربية أولاً . وهذه مسألة غامضة بعض الشئ ، وليس من السهل البت فيها برأى جازم . فأن المؤرخين ، وخاصة ابن النديم والقفطى ، حين يتحدثون عن كتب أرسطو التى ترجمت إلى العربية لا يشيرون إليهما ؛ وكأن ما ترجم من كتبه السيكولوجية ليس إلا كتاب النفس المعروف ، ورسالة الحس والمحسوس(٣) . والفارابى نفسه فى رسالته المسماة : « ما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » يقسم الكتب الأرسطية من حيث موضوعها إلى ثلاثة أقسام : تعليمية وطبيعية وإلهية . وبين الكتب الطبيعية لا يذكر رسالتى الأحلام والتنبؤ بواسطة النوم اللتين اعتاد المشاءون السابقون عدهما فيما بينهما(٤) . وكل ما يحظى به الباحث إنما هو إشارة غامضة إليهما فى ثبت الكتب المنسوبة إلى أرسطو ، والذى أخذه العرب عن بطليموس الغريب(٥) . بيد أنا على الرغم من كل هذا نميل إلى الاعتقاد بأن

(١) ابن رشد ، مقدمة كتاب الطبيعة (الترجمة اللاتينية) انظر أيضاً Rennan, Averroès p. 55

(١) Aristote, De sonno, 11, 456 d, 16.

(٢) Zeller, Die Philos. der Griechen, 11, 2, p. 44-96.

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، طبعة القاهرة ، ص ٣٥١ — ٣٥٢ القفطى ، تاريخ الحكماء ، طبعة ليبزج ، ص ٤١

(٤) الفارابى الثمرة المرضية ، ص ٥١ . نجد هذا التقسيم بنصه تقريباً فى طبقات الأمم لابن صاعد (ص ٢٥) . ويغلب على الظن أن هذا الأخير أخذه عن الفارابى

(٥) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ٤٤ . يظهر أن العرب أطلقوا كتاب الذكر والنوم على المجموعة التي يسميها المحدثون :

هاتين الرسالتين إن لم تكونا قد ترجمتا إلى العربية رأساً ، فقد وصلتا إليها عن طريق غير مباشر . وابن النديم يحدثنا عن كتاب في تعبير الرؤيا لأرطا ميدورس نقله حنين بن اسحق إلى العربية [١] ؛ ولا يبعد أن يكون العرب قد استقوا من هذا الكتاب أو من أي مصدر تاريخي آخر أبحاث أرسطو المتعلقة بالأحلام وتأويلها . ذلك لأن فلاسفة الاسلام يدلون في هذا الصدد بآراء تشبه تمام الشبه الآراء الأرسطية . فحديث الفارابي عن النوم وظواهره والأحلام وأسبابها لا يدع مجالاً للشك في أنه متأثر بأرسطو وآخذ عنه . وقد كتب الكندي من قبل رسالة في ماهية النوم والرؤيا وصل الأمر ببعضهم أن عدها ترجمة لبعض الرسائل الأرسطية [٢] . وربما كان أقطع شيء في هذه المسألة أن نلخص آراء أرسطو ، وفيها وحدها ما يكفي لاثبات أن فلاسفة الاسلام تتلمذوا له هنا كما أخلصوا له التلمذة في مواقف أخرى

يذهب فيلسوف اليونان إلى أن النوم هو فقد الاحساس ، وأن الحلم صورة ناتجة عن المخيلة التي تعظم قوتها أثناء النوم على أثر تخلصها من أعمال اليقظة [٣] . وبيان ذلك أن الحواس تحدث فينا آثاراً تبقى بعد زوال الأشياء المحسة . فاذا ما جاوزنا الشمس إلى الظل قضينا لحظة ونحن لا نرى شيئاً ، لأن أثر ضوء الشمس على العينين لا يزال باقياً . وإذا ما حدقنا النظر إلى لون واحد طويلاً خيل إلينا بعد مفارقته أن الأجسام كلها ملونة بهذا اللون [٤] . وقد نصم بعد سماع قصف الرعد ؛ ولا نميز بين الروائح المختلفة إذا شممنا رائحة قوية [٥] . كل ذلك يؤيد أن الاحساسات تترك فينا آثاراً واضحة . وهذه الآثار الخارجية تعطينا فكرة مقربة عن آثارها الداخلية التي تحتفظ بها المخيلة وتبرزها عند الظروف المناسبة [١] . فالأحلام إذن احساسات سابقة ، أو بعبارة أدق ، صور ذهنية لهذه الاحساسات تشكلها الخيالة بأشكال مختلفة . على أن الاحساسات العضوية أثناء النوم قد تؤثر في الأحلام كذلك ، فيحلم الأنسان بالرعد مثلاً إذا صاح صائح أو ديك بالقرب منه ، أو أنه يأكل عسلا أو طعاماً لذيذاً لأن نقطة غير محسوسة من المزاج جرت على لسانه . وقد يرى النائم أنه يحترق في اللحظة التي يقترب فيها من جسمه لهب ضئيل [٢] . وليست الاحساسات وحدها هي التي تؤثر في الأحلام ، فأن الميول والعواطف ذات دخل كبير فيها . فالمحب يحلم بما يتفق وحبه ، والخائف يرى في نومه عوامل خوفه ويعمل على اتقائها [٣] . وكثيراً ما نحلم بأشياء رغبت فيها نفوسنا أو فكرنا فيها طويلا [٤] . هذه هي الأحلام في حقيقتها وأسبابها . وعل في هذه الأسباب ما يسمح لنا بتأويلها أحياناً . وقد يستعين الأطباء على معالجة مرضاهم وتشخيص دائهم بسؤالهم عن بعض أحلامهم [٥] . وإذا عرفت الأحساسات والظواهر النفسية المحيطة بحلم ما أمكن تعبيره . ومهارة مفسري الأحلام قائمة على أنهم يتلمسون وجوه الشبه الموجودة بين الأحلام بعضها وبعض ، والعلاقات التي بينها وبين ظروف أصحابها الخاصة [٦] . بيد أن كل هذا لا يبيح لنا أن نتقبل الرأي الشائع القائل بأن الأحلام وحي من الله ، فأن العامة والدهماء يحلمون كثيرا بل المصبيون والثرثارون أكثر أحلاماً من غيرهم ؛ ولا يستطيع العقل أن يسلم بأن الله خص هؤلاء أو أغدق عليهم فيضه [٧]

لابد أن تكون هذه الأفكار الأرسطية قد وجدت السبيل الى العالم العربي حيث شغل موضوع الأحلام المفكرين على اختلافهم . فأهل الحديث ، معتمدين على بعض الآثار ، يفرقون بين الرؤيا الصادقة وأضغاث الأحلام [٨] . وهناك أحاديث كثيرة

= (Parwo naturalia) وهذه المجموعة تشتمل على رسالة الأحلام والتنبؤ بواسطة النوم

وبطليموس الغريب شخصية مجهولة ، ويرجح أنه من مفكري الرومان في القرن الأول أو الثاني الميلادي . وقد اشتغل بأرسطو وترجم له وأبان كتبه (القفطي ، ٨٩ — ٩٠)

(١) الفهرست ، ٣٥٧ . أرطاميدورس أو أرطيميدور هذا كاتب يوناني من رجال القرن الثاني الميلادي ؛ وله كتاب حقيقة عنوانه : تأويل الأحلام

(٢) Hanreau, Notices sur les manuscrits latins de la Bibliothéque nationale, Paris, 1869, t. v, p. 201.

(٣) Aristote, Trairé des Rêves, 1, 9 — 10

(٤) Ibld., II, 4

(٥) Ibid., II, 5,

(١) Ibid., II, 11.

(٢) Arstote, La divination, II, 7

(٣) « Traité des Rêves, II, 12

(٤) « La divination, II, 9.

(٥) Ibid., II, — 6.

(٦) Ibid., II 9.

(٧) Ibid., 1, 2 — 3

(٨) الأشعري مقالات الاسلاميين ، II ، ٤٣٤

متصلة بالأحلام وأنواعها نكتفي بأن نشير الى بعضها . روى ابن ماجة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الرؤيا ثلاث : فبشرى من الله ، وحديث من النفس ، وتخويف الشيطان . وفي الصحيحين : « الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان . والمعتزلة يرون في الأحلام آراء مختلفة : فيرجعها بعضهم الى الله ، ويذهب بعض آخر إلى أنها من فعل الطبائع (١) ومنهم من يجمع بين هذين ويقول إنها على ثلاثة أنحاء : نحو يحذّر الله به الانسان في منامه من الشر ويرغبه في الخير ، ونحو من قبل الانسان ، ثم نحو أخير من قبل حديث النفس والفكر (٢) . ويقول النظام إن الرؤيا خواطر مثل ما يُخطِر البصر (٣) . وهذا التفسير على اختصاره يحمل في ثناياه بعض الأفكار الأرسطية

إلا أن رأى أرسطو في الأحلام يبدو بشكل واضح لدى الفلاسفة . وقد خلف الكندي رسالة في ماهية النوم والرؤيا سبق أن أشرنا إليها . وهذه الرسالة لا تزال حتى اليوم بين مخطوطات استامبول ، ونرجو أن نوفق الى نشرها قريباً (٤) وقد وقفنا عليها من طريق آخر ، فان المستشرق الايطالي البينوناجي نشر في أخريات القرن الماضي بضع رسائل للكندي مترجمة الى اللاتينية (٥) وبين هذه الرسائل واحدة عنوانها De somuo et visions (النوم والرؤيا) ، ويكاد يكون من المحقق أن هذه الرسالة اللاتينية ليست إلا ترجمة للرسالة العربية المتقدمة . ونظرة الى هذه الترجمة اللاتينية تكفي لأثبات أن الكندي تأثر تمام التأثر بأبحاث أرسطو السابقة المتعلقة بالنوم والرؤيا . وقد قارن البينوناجي بعض التعريفات الكندية بما يقابلها من التعريفات الأرسطية وأظهر في جلاء ما بينهما من قرابة (٦) . وبهذا وضع الفيلسوف العربي أساس نظرية الأحلام الفلسفية في الاسلام

(يتبع) ابراهيم مدكور

(١) المصدر نفسه ، II ، ٣٤٣
(٢) المصدر نفسه ، II ، ٤٣٣ ، ٤٣٤
(٣) المصدر نفسه ، II ، ٤٣٣
(٤) Bitler , Archiv Orientalni IV 1932, p. 64.
(٥) Al Kundi, Die philos. Abh. p 12 et suiv.
(٦) Ibid. , p. xzIII.

صور سياحية

٦ – يوم في ڤرساي

بقلم سائح متجول

في باريس جمهرة من الصروح والمشاهد التاريخية العظيمة التي تجذب الزائرين بماضيها وروعتها ؛ ولكن ڤرساي تتمتع بشهرة خاصة في التاريخ والسياسة ؛ وقد كانت مسرح بعض الأحداث العالمية الكبرى التي غيرت مصاير التاريخ والأمم ؛ وبستان ڤرساي آية في العظمة والروعة والجمال

فمتى كنت في باريس ، فيجب ألا تفوتك زيارة ڤرساي وقصرها العظيم

وڤرساي في الواقع من ضواحي باريس ، ولا تبعد عنها أكثر من ثمانية عشر كيلو متراً ؛ وفي وسعك أن تصل إليها بواسطة قطر خاصة من المترو تسير إليها يوم الآحاد ، وفي وسعك أن تقصد إليها بواسطة القطار العادي من محطة مونبارناس

وڤرساي مع ذلك مدينة كبيرة يبلغ سكانها زهاء ستين ألفاً تخترقها شوارع كبيرة ، وبها كثير من الفنادق والمطاعم التي أعدت على ما يظهر خصيصاً للوافدين عليها ؛ وفي يوم الآحاد تبدو ڤرساي كأنها في عيد ، وتكثر فيها الحركة بما يتقاطر عليها من وفود الزائرين من أهالي باريس ، ومن الأجانب من مختلف الأمم

قصدنا إلى ڤرساي في صباح يوم أحد بالقطار العادي ، وكان غاصاً بالقاصدين إليها من فرنسيين وأجانب ؛ وكان يوماً بديعاً سطعت شمسه بعد أن أزعجنا المطر في باريس أياماً متوالية ؛ فوصلنا إلى ڤرساي في نحو نصف ساعة ؛ وقصدنا إلى القصر تواً ، وهو قريب من المحطة ، يشرف على ساحة واسعة ؛ ولفت نظرنا لأول وهلة كثرة الجند الذين يتجولون في المدينة ، وفي ڤرساي كما علمنا حامية كبيرة

ومن الغريب أن واجهة القصر الخارجية لا تتمتع بكثير من الجمال والروعة ، ومنها يبدو البناء كأنه معسكر ضخم ؛ ولقد ذكرنا ذلك بواجهة قصر الفاتيكان الخارجية التي لا تدلي بشيء من عظمته الداخلية ؛ بيد أننا ما كدنا نجوز إلى ساحة القصر

الداخلية ، ونشرف منها على بستانه العظيم حتى وقعنا على منظر من أروع ما شهدنا

يشرف قصر ڤرساى من الوجهة الخلفية على بستان شاسع ، قد نظم أبدع تنظيم ، ونمت به الأشجار الباسقة من أنواع لا نظائر لها فى حدائقنا . وفى مقدمة البستان مما يلى القصر مباشرة بحيرة صغيرة ساحرة ؛ وأرض البستان مدرجة ، تمتد منحدرة فى حظائر بديعة من الأحراج الصغيرة ، وحظائر من الزهر تأخذ اللب بمناظرها وألوانها الرائعة ، ويطبع مناظر البستان كلها طابع ساحر من الرشاقة والأناقة والتنسيق

وقد حول قصر ڤرساى كما حول قصر اللوڤر إلى متحف ، ولكن القصر فى ذاته تحفة فنية رائعة ؛ وأعتقد أنه يفوق قصر اللوڤر من حيث الجمال والخواص الفنية ، وإن كان اللوڤر يفوقه من حيث الجلال والهيبة الملوكية ؛ ذلك أن قصر اللوڤر كان مقر العرش ، ومقر الملوكية الفرنسية فى أوج عظمتها وازدهارها ، ولم يكن قصر ڤرساى إلا مصيفا ومقاما مؤقتا ، ولم يغـد مقر البلاط الدائم إلا فى فترات قليـلة فى أواخر عصر لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر

وقصر ڤرساى أحدث عهداً من قصر اللوڤر ؛ وقد بدأ قصراً متواضعاً أنشأه لويس الثالث عشر ؛ ولـكن ولده لويس الرابع عشر فـكر فى أوائل حكمه فى توسيع البناء وتحويله إلى قصر ملوكى عظيم الشأن ، فعهد بذلك إلى المهندس « لى ڤان » أشهر مهندسى العصر ، وخلفه فى تلك المهمة المهندس مانسار ، ثم دى كوتيه ؛ وقام بتنظيم البستان وإنشائه « لى نوتر » وأشرف على زخرفة القصر الفنـان « لى بران » وكلهم من أعلام هذا العصر الزاهر ، فجاء القصر وبستانه آية من آيات الفخامة الملوكية والفن الرائع

وقد كان القصر فى المبدأ مصيفاً ومقاماً مؤقتاً للملك وخاصته ، ولـكنه غدا فى عصر لويس الخامس عشر مقراً للملك والبلاط ، وكان لويس الخامس عشر يؤثر الاقامة فيـه ويقضى فيه معظم أوقاته تحيط به خاصته ، وتقيم فيـه خليلاته إلى جانب زوجه الملـكة الشرعية كما سنرى

* * *

ويتألف قصر ڤرساى من طبقتين غير الطبقة الأرضـية ؛ والطبقة الثانية والوسطى هى أبدع ما فيه ، وهى التى تضم تحفه وذخائره ؛ وتتكون هذه الطبقة من عدة أجنحة وأبهاء ملوكية شاسعة ، وتضم مجموعة ثمينة من الصور التاريخية التى تمثل كثيراً من المناظر الشهيرة والشخصيات الملوكية فى عصر لويس الرابع عشر ، ولويس الخامس عشر ؛ ويشغل جناح الملك لويس الخامس عشر الطرف الأيمن من القصر ، وقد عرضت فى غرفه الأنيقة مجموعات من الأثاث الملوكى النفيس ، ومنهـا أثاث غرفة الاستقبال ، وغرفة المـكتبة وغرفة النوم ، والمتزين وكلها مما لا يزال يعتبر فى عصرنا من أجمل وأبدع النماذج الفنية ؛ وقد زينت الجدران ببعض المناظر الملوكية من حفلات الاستقبال والصيد وغيرها ، وزينت السقف بأبدع النقوش ؛ وتوجد فى هـذا الجناح مجموعة من الصور للملك لويس الخامس عشر وزوجه الملـكة مارى لـكزنزكا ، وبعض أفراد الأسرة المالـكة ورجال الدولة من صنع أعظم مصورى العصر ؛ وفى هذا الطرف أيضاً ، وإلى جانب جناح الملك يوجد الجناح الذى كان مخصصاً لسكنى خليلته المركيزة دى بومبادور ، ومن بعدها لسكنى خليلته الدوقة دوبارى ، ومن الغريب أنه لا يبعد كثيراً عن الجناح الذى كان مخصصاً لسكنى الملكة الشرعيـة مارى لـكزنزكا

ويلى هذا الجناح ، فى وسط القصر ، جناح لويس الرابع عشر ، وهو أفخم وأروع ، وبه غرفة نوم ملوكية مازالت تحتفظ بأثاثها ، وإلى جوارها ترى متزين الملك ، وخزائن الثياب ؛ وقد زين هذا الجناح بصور عديدة للويس الرابع عشر ، فى أوضاع ومناسبات مختلفة ؛ والملك يبدو فيها جميعاً قصير القامة ، محدودب الأنف ، وقد انسدل على كتفيه شعره الغزير ، وبدت على وجه ملامح الـكبر والخيلاء

ويوجد فى الطرف الآخر من القصر بهو شاسع تزينه مجموعة كبيرة من الصور التاريخية الضخمة التى تمثل أعظم المواقع الحربية التى انتصرت فيها فرنسا منذ فجر العصور الوسـطى حتى عصر نابوليون ، وقد صورت معظم هذه المناظر فى عصر نابوليون واشترك فى تصويرها أعظم مصورى العصر مثل لوى داڤيد ، وايزابى ، وڤرنيه ؛ وتبدأ المجموعة بمنظر يمثل انتصار الملك كلوڤيس على الرومان الغاليين (سنة ٤٨٦ م) ، ويليـه منظر استوقفنا طويلاً لروعته وطرافته ، هو منظر انتصار الفرنج على العرب فى سهول تورو بواتييه سنة (٧٣٢ م) ، وهى الموقعة الشهيرة التى تعرف فى

التاريخ الإسلامي بموقعة البلاط أو بلاط الشهداء ، وفيها يبدو عبد الرحمن الغافقي قائد العرب شيخاً مهيب الطلعة تتدلى لحيته البيضاء الطويلة حتى صدره ، وقد وثب بجواده المضطرم إلى الطليعة وهو شاهر سيفه ، ولكن جنده يتساقطون من حوله أمام ضربات الفرنج ؛ وأذكر أنني رأيت هذه الصورة منذ أعوام في طبعة انكليزية لكتاب المستشرق دوزي عن الأندلس ، وكنت أتوق إلى معرفة الأصل الذي نقلت عنه ، فاذا بي في بهو فرساي أمام المنظر الرائع وجهاً لوجه

ويلي ذلك في صفين متقابلين مناظر لأعظم المعارك التي انتصرت فيها فرنسا مرتبة حسب العصور والتواريخ ؛ مواقع شارلمان ، ولويس الحادي عشر ، ولويس الرابع عشر ، وموقعة فالمي أشهر معارك الثورة الفرنسية ضد أوربا ، ثم طائفة كبيرة من مواقع نابوليون مثل مارنجو ، ڤاجرام ، أوسترلتز ، وغيرها

بيد أن أعظم ما يثير الخيال في أرجاء هذا القصر الشاسع ، هو الذكريات التاريخية العظيمة التي كان مسرحاً لها ، والتي أسبغت عليه طابعاً خاصاً من الروعة والخلود ؛ ففي قصر فرساي عقدت مؤتمرات ووقعت معاهدات كان لها أكبر الأثر في تاريخ فرنسا وتاريخ العالم بأسره ؛ نذكر منها عهد استقلال الولايات المتحدة (أمريكا) الذي وقعته انكلترا في سنة ١٧٨٣ على أثر هزيمتها في حرب الاستقلال الأمريكية ، وقد وقع هذا العهد في قصر فرساي ترضية لفرنسا وتكريماً لها لما بذلته من كبير عون للأمريكيين في هذه الحرب التحريرية ؛ وكانت نتيجة هذا العهد الخالد أن قامت في العالم الجديد أمة حديثة مستقلة من أعظم الدول الديموقراطية ؛ وفي سنة ١٨٧١ ، على أثر محنة فرنسا وهزيمتها أمام ألمانيا في الحرب السبعينية (سنة ١٨٧٠) أرغمت فرنسا على أن توقع وثيقة هزيمتها وذلها في قصر فرساي نفسه ، في بهو المرايا الشهير Galerie des Glaces ، وهو البهو الشاسع الذي يتوسط القصر فيطل على البستان من ناحيتيه ، وأرغمت على أن تتنازل لألمانيا عن الالزاس واللورين ؛ وفي بهو المرايا أيضاً أعلنت الامبراطورية الألمانية ، وتوج أول امبراطور ألماني ، وهو ڤلهلم الأول (جيوم) ، وأجريت مراسيم التتويج في نفس البهو بحضور ملوك الولايات الألمانية المتحدة ، وهذه ذكريات من أسود الذكريات وأتعسها في تاريخ فرنسا القومي

على أن فرنسا اعتزمت غداة ظفرها في الحرب الكبرى أن تمحو هذه الصفحة الشجية وهذه الذكريات الأليمة من تاريخها وأن تثأر لشرفها القومي من ألمانيا ، وأن ترغمها على أن توقع وثيقة انكسارها وذلها في نفس المكان الذي اختارته ألمانيا من قبل لارغامها وإذلالها ؛ في هذا البهو الشهير ذاته — بهو المرايا — وقعت ألمانيا معاهدة الصلح — أو معاهدة ڤرساي — التي فرضها عليها الحلفاء الظافرون في يونيه سنة ١٩١٩ ، والتي تثقلها بمختلف الفروض والمغارم الهائلة ، وتقضي عليها برد الالزاس واللورين إلى فرنسا

وليس في بهو المرايا اليوم ما يذكرنا بأعظم معاهدة عرفها التاريخ سوى لوحة بسيطة مؤثرة كتب عليها . « في ٢٨ يناير سنة ١٩١٩ ، ردت الألزاس واللورين الى فرنسا »

وفي نهاية البستان الشاسع من الناحية الأخرى صرحان آخران منعزلان هما قصر تريانون الكبير ، وقصر تريانون الصغير ؛ وقد أنشأ أحدهما لويس الرابع عشر ، وأنشأ الآخر لويس الخامس عشر ؛ وكلاهما حافل بالذكريات العذبة ، وكلاهما كان مسرحاً لليالي والحفلات الباهرة ؛ وكان تريانون ملاذاً محبوباً للملكة ماري أنتوانيت ، والامبراطورة جوزفين بوهارنيه زوج نابوليون

***

قضينا عدة ساعات في التجوال في هذه المعاهد والمشاهد التي تذكي الخيال الى الذروة وتحملنا الى عصور وعوالم أخرى ؛ وكانت الساعة الثانية بعد الظهر حينما انتهينا من هذا التجوال الممتع ، وغادرنا القصر المنيف والبستان الشاسع الى قلب المدينة حيث طفنا بطرقاتها برهة ، ثم عطفنا على مطعم نتناول فيه الغداء ، وقد رأينا أن الأثمان في ڤرساي ليست أقل ارتفاعاً منها في باريس ، وأن موجة الغلاء المرهق التي قدمنا لك منها فيما تقدم أمثلة عديدة تعم فرنسا بأسرها

ولقد كان يوم ڤرساي خاتمة التجوال في رحلتنا البارزية ؛ وكانت الأقامة في باريس بما فيها من تكاليف وأثقال مرهقة ، وبما استوعبناه من مشاهدها ولياليها المتماثلة ، قد أخذت تثقل على النفس ، فأزمعنا مغادرة العاصمة الفرنسية الى عواصم ومجتمعات أكثر ترحاباً وأقل اعناتاً وارهاقاً ، وأرفع خلالاً ومثلاً

في الأدب المقارن

شخصيات الأدباء
في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يكثر التشابه بين أفراد الجنس الواحد فى عالم الطبيعة فى الطبقات الدنيا من الأحياء ، وكلما ارتقى الجنس فى سلم الحياة ازداد الاختلاف فى المظهر والصفات بين أفراد الجنس ؛ وكذلك الحال فى المجتمعات البشرية : يتشابه الناس ويتقاربون فى المشارب والأغراض فى عصور الانحطاط ، ويختلفون خلقاً وعبقرية فى عصور النهضات ، ويتفرقون فى شعاب الحياة ودروب المطامح فلا يتفقون إلا فى تدفُّع الحياة فى نفوسهم وعلو هممهم وولوعهم ببعيدات الأمور ، فالتشابه والاتفاق من أمارات الانحطاط . والاختلاف والتميز من دلائل الرقى

وذلك الشأن فى آداب الأمم : فان أظهر ميزات عصور النهضات فيها اختلاف مشارب الأدباء وتباين شخصياتهم واستقلال نظراتهم إلى الحياة ووجهاتهم فى الفن ، فهم وإن اتفقوا على مبدأ أو مذهب فى الأدب ، لا يتشاكلون ولا يكرر بعضهم بعضا ولا يُغنى أحدهم عن سائرهم ، بل ينتحى كل منهم ناحية من الحياة يوكل بها ، ويرى الحياة جماء بمنظار نفسه لا بمنظار غيره ، وينفث فى أدبه خلاصة عبقريته الفردية ؛ أما فى عصور إدبار الأدب فيتماثل الأدباء حذوك النعل بالنعل ، ويتهافتون جميعاً على نموذج الأدب أو الأنشاء الأدبى ، لا ينفكون يقلدونه ويعارضونه ويغفلون بمحاكاته عن حقائق الحياة ولباب الفن ، فيخرج أدبهم جميعاً صوراً مكررة من أنفسهم وأشكالاً ممسوخة من ذلك النموذج المحتذى أو القالب المصبوب

ويمتاز فحول الأدب الانجليزى ، ولا سيما فى عصور نهضاته ببروز شخصياتهم واستقلالها واختلاف بعضها عن بعض اختلافاً تاماً ، إلا فى اقتباسها جميعاً من نور الصدق ، وإصدارها جميعاً عن معدن الشعور : فالنهضة الرومانسية فى مستهل القرن التاسع عشر مثلاً ، كانت ذات أغراض معينة مشتركة بين جميع أعلامها : كانت ثورة على قيود الفكر وصناعة اللفظ وتقاليد النظم وعودةً إلى الطبيعة والبساطة ، ونزوعاً إلى جمال الحياة ، ومع ذلك يتباين فحول شعرائها وتبدو شخصياتهم بارزة واضحة الاختلاف فى الأخلاق والمشارب والأساليب :

فوردزورث كان موكلاً بالطبيعة ومجاليها وأسرارها ، مؤمناً بضرورة استخدام لغة النثر السهلة فى الشعر ؛ وشلى كان معنياً بالاصلاح الاجتماعى وعدواً لدوداً للملكية والكنيسة والتقاليد الحمقاء ؛ وكولردج كان هائماً فى عوالم المجهول وأغوار الماضى السحيق ؛ وسكوت كان مغرماً بالعصور الوسطى وتاريخها فى بلاده اسكتلندا ، متغنياً بمجدها وفروسيتها ، محيياً لأغانيها الشعبية ؛ وبيرون كان بوهيمى النزعة جرىء الفكرة مشغولاً بقصص الأبطال ، جزل الأسلوب رائعه دون تدبيج ولا تروّ

ولنضرب مثلاً آخر مؤرخى الانجليزية الثلاثة ، الذين توخوا الفن والأسلوب الأدبى فى تواريخهم : جيبون وما كولى وكارليل ، فأولئك شخصيات ثلاث متميزة : فالأول رصين الأسلوب واللفظ ، محكم البنيان ميال إلى الموازنة فى المعانى والازدواج فى التراكيب ، والثانى يراوح بين طويل الجمل وقصيرها ، مولع بتصوير المناظر التى يمر بها تصويراً يقف بك أمامها وجهاً لوجه ، كلفٌ بتأريخ مآثر وطنه وعظائم أبنائه ومواقف فخاره ، أشدُّ تشبعاً بالوطنية وأقل نصيباً من النظرة الانسانية الشاملة من صاحبيه ، والأخير قصير الجمل جافى الأفكار ، معنى بعظماء الرجال أخلاقهم وسحناتهم وآثارهم فى عصورهم

وقل مثل ذلك فى سائر مشهورى الأدباء الانجليز : كلهم

وقد يكون فيما اتخذته فرنسا أخيرا من الخروج عن معيار الذهب وتخفيض قيمة الفرنك بالنسبة للعملات الأجنبية شيء من التخفيف على السائحين وإغراء لهم بزيارة فرنسا بعد ما انصرفوا عنها فى الأعوام الأخيرة ، ولكن الظاهر أن التخفيض الجديد لم يحدث أثراً يذكر إذ صحبه ارتفاع مماثل فى الأثمان ، فاذا صح ذلك ، وإذا لم توفق الحكومة الفرنسية الى تخفيض معيار العيش وإخماد تلك النزعة الجشعة التى تبدو فى كل صنوف التعامل فأن أولئك الذين زاروا فرنسا أيام ارتفاع الفرنك واكتووا بنار هذا الغلاء ، يترددون كثيرا فى العودة اليها

(***)

مختلفو الشخصيات مستقلوها ، واضحو النفسيات ، متميزة شخصياتهم ونفسياتهم إحداها عن الأخرى ، تقاربوا في العصور أو تباعدوا ، اتفقوا في المذهب الأدبي أو اختلفوا ، وذلك أول دليل على حيوية الأدب ، وأصدق شاهد باستمداده من ينابيع الحياة الجارية ، لا من بطون الكتب الجافة ، فالحياة لا تفنى صورها تعدداً ، وهى تبدو لكل أديب صادق النظر والشعور في صورة جديدة

وإنما تشابهت شخصيات الأدباء وتماثلت آثار الشعراء في عصور تدهور الشعر في أواسط القرن الثامن عشر ، حين بعد الشعراء عن الطبيعة وانغمروا في المدينة ، وهجروا الحياة وغرقوا في صفحات الكتب ، وأعرضوا عن وحى شعورهم وقلدوا من سبقوهم ، فعدوا پوب ودريدن المثل الأعلى الذى يحتذى ، والمطلب الأسمى الذى لا يطلب سواه ، واحتذوهما في الغرض والأسلوب والعروض ، وتعاوروا أشعارهما معارضة واقتباساً واختلاساً ، فخرجت آثارهم جميعاً متشابهة متشاكلة بعيدة عن الفن لا تصور شخصيات قائليها ، وخملوا جميعاً من دون ذينك الشاعرين اللذين احتذوهما . فلا يهتم بآثارهم اليوم إلا مؤرخ الأدب الدقيق المستقصى

وفي تاريخ الأدب العربي شخصيات مستقلة واضحة متميزة ، مخالفة كل منها للأخريات قولاً وخلقاً وأسلوباً ، كالمعرى الحكيم المشفق على أمة الطير والحيوان ، المعنىّ بتنازع البقاء وبنى الأحياء ، والمتنبى الطموح « المتعاطى للكبر وعلو الهمة » كما قال بعض معاصريه ؛ وابن الرومى الشغوف بالجمال الطبيعى والانسانى ، المنهوم بنعيم الحياة ولذاتها ، الدقيق النظرة ، الرائع التصوير ؛ وأبى نواس الماجن المستهتر ؛ والجاحظ الموكل بفنون الثقافة ؛ وبديع الزمان المعتد بنفسه ، الحريص على المادة المكاثر بثروته اللغوية ومهارته الصناعية ، السهل الديباجة ، الرائق الفكاهة . كل هاتيك شخصيات بارزة متميزة

ولكن بجانب أمثال أولئك حَفْلٌ كبير من مشهورى الأدباء الذين آتتنا آثارهم وانحدرت إلينا بعض أخبارهم ، ولكن شخصياتهم مبهمة مطموسة ، يكتنفها الضباب ولا يستجليها الخيال ، وتتشابه كثيراً حتى تُنضيفُ آثار بعضها الأدبية إلى آثار الأخرى فلا ترى فارقا ، ولا تحس مانعاً يحول دون ذلك من تباين الأساليب أو اختلاف النفسيات أو تضاد النزعات ؛

بل إن شخصيات بعض من تقدم ذكرهم من فحول العربية ، على كثرة ما وصل إلينا من كتاباتهم وأخبارهم ، مبهمة في كثير من نواحيها

ولا ريب أن لطول العهد وكر الزمن أثراً كبيراً في تبديد الآثار ، وتغيير الأفكار والمشارب والأذواق ، وإحاطة شخصيات المتقدمين بغياثم من الغموض والغرابة مهما تحدث الشعراء بذكر الخلود ؛ ولكن هناك عدا هذا عوامل لابست الأدب العربى فأدت إلى غموض كثير من شخصيات كثير من أعلامه ، وتشابهها واختلاطها ، أولها شيوع الأمية في الجاهلية وصدر الاسلام ، مما أدى إلى تبدد أخبار كثير من الشعراء وضياع أشعارهم واختلاطها ، ودخول الزيف والتمويه عليها ، مع أن شعر ذينك العصرين كان أصدق حديثاً وأكثر إفصاحاً عن شخصيات قائليه من شعر العصور التالية ، لولم تعبث به يد الأمية والنسيان

ولما انتشرت الكتابة لم تكن الطريقة التى جرى عليها المؤرخون في ترجمة الأدباء هى المثلى : فقد اقتصروا على تواريخ ووقائع — كوفود الأديب على ممدوح أو اتصاله بديوان أمير — لا أهمية لها في شرح نفسياتهم ، ولا غناء وراءها في توضيح شخصياتهم ، وجاء كثير من التراجم مختزلا مجتزأ . وناقض بعض الروايات بعضاً ، وصعُب تصديق بعضها ، فظلت جوانب من تلك الشخصيات مغلقة ؛ فما أقل ما يعرف عن عبد الحميد وابن المقفع والطائى والبحترى وابن الرومى والمتنبى ، فهم لا يكادون يظهرون في ضوء التاريخ إلا في جناح أمير أو ركاب عظيم ؛ أما نشأتهم فمهملة ، وهى التى لها أكبر الأثر في آدابهم ؛ وأما حياتهم اليومية فمغفلة ، كأن ليس لها خطر ولا شأن

وما قصر فيه المؤرخون لم يعوضه الأدباء أنفسهم : فكثير منهم لم يصوروا أنفسهم في أشعارهم ورسائلهم صورا واضحة ، ولم يودعوها خلجات أفئدتهم ونظراتهم في الحياة ؛ بل ما أكثر الكتاب الذين قصروا بيانهم على إنشاء رسائل الأمراء ، والشعراء الذين توفروا بأشعارهم على مديح أرباب النوال ، فامتلأت آثارهم الأدبية بذكر أناس كثيرين ووصف أحوالهم وأفكارهم ، فيما عدا منشئى تلك الآثار الأدبية أنفسهم وأحوالهم وأفكارهم ، فلا غرو جاءت آثارهم متشابهة ، لا توضح شخصياتهم ولا تنهض ببعض ترجمتهم ؛ ومن العجيب أن أكثر الشعراء

إفصاحا عن أفكارهم الخاصة وحاجاتهم وشعورهم ، كانوا هم المجان والخلعاء الذين لم يكن لهم شعور ولا تفكير في سوى اللذة والعبث كبشار وحماد

فالناظر في ديواني الطائي والبحتري ، وفي رسائل ابن العميد والصاحب ، لا يعثر إلا نادراً على فقرة أو أبيات مصدرة عن شعور شخصي للأديب هو ببيانه محتفل ، أو فكر جليل هو في إذاعته جاد ، ولا يرى في الشعر إلا مديحا وهجاء وشكوى للزمان وافتخاراً بعلو الشأن ، أو ما كان يجب للشاعر من علو الشأن ، وضرباً للأمثال واصطناعا للحكمة ؛ ولا يرى في النثر إلا تنميقاً وتدبيجا واقتباساً وتكاثراً بسعة الاطلاع ، فلا غرو يتشابه أولئك الشعراء إلا تفاوتاً قليلاً في الصياغة ، وأولئك الكتاب إلا اختلافا بسيطا في الأسلوب ؛ فاذا أنت نزعت جانباً كبيراً من نظم أولئك الشعراء ، أو نثر أولئك الكتاب ، لم تشوه آثارهم بانتزاع ما لا غنى عنه لبيان نفسياتهم ؛ وإذا أضفت بعض آثارهم إلى بعض لم يَعُقْك عائق من تميّز شخصية عن شخصية أو اختلاف منحى عن منحى

وهناك عامل خطير لا يقل عن هذا أهمية في تشابه شخصيات الأدباء وتماثل آثارهم : ألا وهو نزعة المحافظة والتقليد التي صاحبت الأدب العربي منذ قامت الدولة العربية وانتشرت اللغة في الأقطار ، فقد اتُّخذ الأقدمون مُثُلاً عُليا في البلاغة والشاعرية ، وألح المتأخرون على آثارهم وأغراضهم في القول ومعانيهم محاكاة وتوليداً وتخريجاً ، وجالوا جولان المتقدمين في ميادين المدح والهجاء ، والفخر ، وشكوى الدهر ، وضرب المثل واستخراج الحكمة ، واحتذوهم في النسيب بليلى وهند والوقوف بالأطلال واستحثاث المطى وذرع الفلوات ، فكان للأدباء في توالى العصور تراث أدبي واحد يتكرر ولا يكاد يتغير ، ويتشكل ولا يكاد يتحول ، ويأخذ منه كل أديب ويكاد يفنى فيه ، وينهل منه وتكاد شخصيته تغرق في عبابه

فتقليد المتقدمين دون الطبيعة ، واتخاذهم مثلاً عليا يصدر عنها القول ، بدل أن يصدر عن الشعور الفردي المستقل ، من أكبر أسباب ركود الأدب وتشابه آثار الأدباء وتقارب شخصياتهم ؛ ومن ثم جاءت آثار كثير من الأدباء المتأخرين مُتَنَشِّا كلة مُشابهة جميعها لآثار المتقدمين ، على تباعد الزمان واختلاف المواطن ؛ وظلت شخصياتهم غامضة لأنهم لم يجلوها في كتاباتهم جلاء صادقاً

ولما استفحلت الصناعة اللفظية ، واشتد الحرص على المحسنات البديعية ، غرقت معاني الشعر وأغراضه وشخصيات الأدباء جميعاً في سيل من الألفاظ المرصوفة والعبارات المقتنصة من آثار المتقدمين ، وأصبحت دواوين الشعراء جميعاً ديواناً واحداً مملوءاً بالنكات اللفظية ، لا فرق بين أوله وآخره . وما أشبه ما قاله البهاء زهير بما قاله ابن نباتة بما قاله صفي الدين من نسيب متناه في ادعاء الرقة والظرف ، ووصف لمجالى الطبيعة تُخالط فيه محاسن الطبيعة وصورها ببهارج الألفاظ وزخارفها مزجاً عجيباً ، وتُتطلَّب البراعة بأقحام مصطلحات العلوم كالنحو والمنطق والنجوم

ولا ريب أن أمتع الأدب للنفس ، وأعلقه باللب ، ما أبان عن شخصية قوية ، ونفسية مستقلة ؛ ومن ثم نرى أن ذوى الشخصيات الأصيلة والنظرات الصادقة في حقائق الحياة ، كالمتنبي وأبي العلاء وابن الرومي والجاحظ ، هم الذين حظوا ، دون غيرهم من أدباء العربية الأقدمين ، بالدرس الطويل والترجمة المفصلة من كتاب عصرنا الحالي ، لأن آثارهم تشوق الدارس وتحفزه إلى الكتابة والتعليق والنقد ، وتحوى صوراً من أنفسهم يطيب للمطلع التأمُّلُ فيها والنظر إلى الحياة في ضوء أفكارها .

ولو حاول ناقد أن يترجم لمروان بن أبي حفصة ، أو مسلم بن الوليد ، أو مهيار ، أو البحتري ، أو الصاحب ، أو الحريري ، ترجمة مفصلة تشرح نفسية المترجم وتميط عن نزعاته وميوله وعوامل ذلك ، مستمداً شرحه وتحليله من آثار الكاتب أو الشاعر الأدبية التي اشتهر بها ، لكلف نفسه شططا

فالناظر في الأدبين العربي والانجليزي ، لا يسعه إلا أن يلاحظ أنه يجد في تاريخ الأخير شخصيات قوية مستقلة ظاهرة التباين والاختلاف ، مصورة في أعمالها الأدبية حتى لتكاد تغنى بها عن ترجمة المترجمين ، وتحوى كتاباتها صورها النفسية الداخلية فلا تكاد تترك للمؤرخ أكثر من سرد التواريخ وبعض الوقائع وهي لذلك ممتعة جذابة يحس القارئ أن بينه وبينها على اختلاف اللغة والزمن والوطن تجاوباً وصلة شاملة هي صلة الانسانية ، ويطربه أن يراها تعالج نفس المشاكل وتخامرها نفس الخواطر والخوالج التي تساوره ، وأمثال تلك الشخصيات الواضحة أقل عدداً في تاريخ الأدب العربي

فخري أبو السعود

تشاؤم المتنبي
وما أعد لهذا التشاؤم

« كلمة أعدت لتلقى في مهرجان دمشق فجاءت متأخرة »

للأستاذ خليل هنداوى

التشاؤم طبيعة العقل المتيقظ الذى فتح عينيه فرأى نفسه فى القافلة البشرية فأخذ يسأل نفسه : لِمَ يمشى ؟ ومن أين إلى أين ؟ ولكنه لبث يمشى ... وكيف لا يتشاءم العقل حين ينظر إلى الكون ويحاول أن يحكم على أشيائه بميزانه ، فيجد قاعداً ما كان يجب أن يكون قائماً ، وقائماً ما كان ينبغى له أن يكون قاعداً . هذه النظرة الأولى التى تبدأ فى العقل حين يتيقظ وعلى مقدار سعة دوائر العقل تتسع هذه الآماد وتتباعد هذه الدوائر . وهنا يعود العقل فى كل مراحله خاسئاً يحمل إلى النفس خيبته فى رحلته ، فتتلقاه حاملاً الشقاء دون عزاء والحيرة دون إيمان ، والنفس إزاء هذا القلق العميق إما أن تعود إلى نفسها ويلتف بعضها على بعضها التفاف الأفعى ، تخلق من نفسها العزاء فى هذه الحياة ؛ وسواء عندها أن تخلقه من إيمان تفرضه أو تفاؤل تؤمن به ، فترى فى الحياة إشراقاً ولا إشراق وبهجة ولا بهجة ، فتتغنى مغتبطة بهذا التفاؤل الذى هو وليد ذلك التشاؤم المبطن به ، وإما أن تعود ولا تكسب من التشاؤم إلا التشاؤم

وقد يكون هذا التشاؤم عاماً يمثل رسالة الانسانية المتألمة ، وقد يكون خاصاً يمثل رسالة الشاعر نفسه ، يضع فيها آلامه ولا يتصل بالانسانية إلا بقدر ما تريد نفسه أن تتصل بها . وآفاق التشاؤم العام أوسع مدى ، وأصحابه أكثر نبلاً لأنهم أفنوا ذواتهم فى الذات الانسانية ، وأصبحت تتمثل فيهم كل آلامها وأوجاعها ، لأن الانسانية ذاتها تجهل ما تريد من الكون وما يراد منها . وآفاق التشاؤم الخاص ضيقة محدودة تدل على أنانية أصحابه ، إذ لو أن حظاً من حظوظ الحياة الضائعة أتاهم لبدل نظراتهم فى الكون ولون لهم شمساً جديدة بألوان غير ألوانهم

ولكن التشاؤم لا تتحد نتائجه ؛ فمن التشاؤم ما يذهب بصاحبه إلى الاستسلام حين يؤمن بعجزه ، وإلى الزهد حين يؤمن بفناء الحياة ، وهذا أقبح التشاؤم وإن يكن أصدقه عند العقل . ومن التشاؤم ما يثير فى النفس قوى المقاومة فيها بالعنف والشدة ، وبهذا التشاؤم تعتز الحياة وتشرق ألوانها القاتمة ؛ فشوبنهاور ونيتشه رجلا تشاؤم حالك اللون ، ولكن تشاؤم شوبنهاور قاده إلى الاعتقاد بأن العدم وحده هو الذى ينقذ الانسانية من آلامها التى تتذوقها بين الموت والحياة . وتشاؤم نيتشه كان موقظاً لنفسه وحافزاً قوياً له لعبادة الحياة لأنها الحياة مهما كانت ألوانها ومهما طغت آلامها

لست أعرف فى الأدب العربى أبلغ تشاؤماً من اثنين : المعرى وابن الرومى وثالثهما المتنبى .. أما الأولان فقد سلكا فى تشاؤمهما مسلكاً عدمياً يدعو إلى احتقار الحياة ، والمعرى هو القائل بأن الولادة جناية ، وهو الذى غلبت عليه فكرة صوفية غير مؤمنة ؛ وابن الرومى هو الذى جعل من حياة الانسان مأساة يبدأ أولها بعويل الطفل حين يولد وتنتهى بمثله حين يموت . أما المتنبى فقد كان جهازه العصبى عنيفاً ، وكان تشاؤمه مضطربا متوثبا لم يدفعه إلا الى مقاومة الحياة ؛ لا يصدفه عنها صادف لأنه مؤمن بها ومستهام بها ولو أنها عجوز درديس ! وقد كان تشاؤمه ، اجتماعياً — وهو ما اصطلح أدباؤنا على تسميته بالحكمة المتنبية — وتشاؤمه الاجتماعى كان وليد حظه فى هذا الوجود الذى جعل من حياته المبهمة والمعلومة مرحلة آلام وجهاد . تشاؤمه فى نظراته الاجتماعية ولا يرى منها إلا ما يتصل بنفسه ؛ ولقد يطغى هذا التشاؤم على بقية نظراته فى مسائل الحياة والكون لأنه كان مريضاً بحب معالى الأمور ، مريضاً بعظمة نفسه ، كأنما يرى — بعد أن حرمه المجتمع حقه — يرى واجبه أن يضع نفسه — وهو حر بها — موضعاً عالياً ، وذا أقل ما يفعل ؟ ولا أستطيع إلا أن أتصور تلك الحدة فى جهازه العصبى الذى كان عنيفاً فى احتداده متوتراً فى هدوئه . وهنا كان سر اختلاف التشاؤم بين المعرى والمتنبى . فالمعرى كان أوسع أفقاً فى دائرته ومغازيه ، وكان نظره أعم فى مسائل الكون والحياة لأنه وقف درسه وشعره عليها ، وكان له فى زهده وعماه ما يصرفه عن الاشتغال بدنياه . فمال به تشاؤمه الى الزهد والعدمية كما مال بشوبنهاور . مع أن المعرى أحد محبى المتنبى والمتأثرين به ، أخذ منه تشاؤمه وأغفل ما كان عنده من أسباب المقاومة . وإذا فكر الانسان قليلاً فى حاله بدا له أن الكآبة

تنتظره ، وأن كل فكرة هنا تقوده الى الحزن . وما حياة الانسان على الأرض إلا مأساة تنتهي دائماً بالدموع والشقاء والموت . يعلم المفكرون هـذا المغزى ولـكن بعضهم لا يقول به . بل إن منهم من يدعو الى الايمان القوى بالحياة . ولـكن هل كان الناس كلهم يملكون هذه القوة الروحية ؟ وهما أمران مختلفان ؛ أن يتغلب المرء على تشاؤمه وهمومه فى سبيل اتمام دورة الحيـاة ، أو أن يجتنب الحياة تطغى عليه أنانية حاقدة . وهل كان هذا الايمان القوى بالحياة إلا نتيجة تشاؤم عميق ونفور عميق من الحياة وولع عنيف بها يولده هذا النفور ؟

فى فلسفة المعرى تشاؤم ليس بايجابى صرف ، ولـكنه تشاؤم سلبى . فيها انطلاق من الذاتية وتعلق بالذاتية : لا تطلق «أم دفر» لمجرد نتنها ولـكنها تدانت من « أم دفر » فلم تبؤ إلا بالخيبـة . فلسفة وجدت ذاتها ضائعة بين الذوات ؛ ومثل ذات المعرى لم تأت لتكون ضائعة ، فشنت الغارة على الدنيا وعلى أهلها وانتقمت لذاتها منها ومنهم ، وبهذا استغنت عن ذاتها فى ناحية وتمسكت بذاتها من ناحية ثانية . ولهذه الذات خطرها لأنها أنانية حاقدة نصبت نفسها فوق غيرها وطفقت تعطى أحكامها القاسـية على الناس وقيمهم وعقائدهم ، وتسخر منهم وتفشى معايبهم وتكشف عن مخازيهم ، وهى فى كل هذا فرحة مختالة ، ترى فى كل خطوة تخطوها ظفراً لها لامعاً . ولهذه العلة وحدها كان يأنس بالمعرى كل متشائم لأنه يحسن له الانتقام من الحياة وأبناء الحياة ولـكنه ظفر موهوم لا يكلف صاحبه إلا النقمـة . أما من لا يزالون يتلمسون فى أنفسهم بقية من الحياة النشيطة فهم لا يرضون عن هذا التشاؤم . فالمتنبى متشائم يهاجم فساد الناس والمجتمع ولـكنه لا يهرب من الحياة ولا ييأس منها يأساً قاتماً ، فى يأسه انطلاق وفى نقمته رضا ، وحياته وأدبه شيئان متصلان لا يمكن أن ينفصلا لأنهما يعبران أصدق التعبير عما يريد أن يقوله عن الحياة ، ولأن حقائقه العامة كانت مستخلصة من حقائق الحياة الخاصة

— ٢ —

ادخل فى كل باب ولجه المتنبى : فى اجتماعياته وفى إحساسه بذاته وفى نظراته إلى الحياة والموت وما وراء الموت تجـد فى ثنايا هذه النظرات تشاؤماً عميقاً ينفذ اليه النظر الثاقب ، وتجد أن هذه المقاومة التى تمثل الرجولة الـكبيرة قد كلفت صاحبها كثيرا ، وجعلت حياته مسرحا للاضطراب والشقاء . أما المجتمع عنده ، فهو غاب تتصارع فيه سباع الأنس ، ينال واحدها الشىء غلاباً واغتصابا . وقد تنقلب هذه السباع غرباناً ورخماً ، فويل للجريح الذى يشكو اليها ، وويل للذى يأمن لهم ، ويثق بهم ، ويغره منهم الثغر المبتسم . ولا عجب إذا تناحرت السباع فالحياء لا يسد لها جوعا والسلام لا يحفظ لها بقاء . والشاعر — خلال ذلك — يريد أن يكون أسداً — ولـكن حيياً — « وهل ينفع الأسد الحياء من الطوى ؟ » يريد أن يكسب ما لا يصمه وما لا يشركه فيه وغد . وإذا لم ينل ذلك فالذنب ذنب الزمان الهرم !

كيف يريد أن يقابل مثل هذا المجتمع ؟ أيشكو ويتعتب ، وهو فى كل قصيدة يشكو ويتعتب . أيسكن ويرضى ؟

وللواجد المكروب من زفراته ‏ سكون عزاء أو سكون لغوب

أيرضى عن الحياة وما صفت إلا لجاهل متعاقل وما شق فيها إلا عاقل ؟ أيطمئن إلى سرورها وقد رأى انتقاله ؟ أيسمى فى منا كبها ومسماه منها فى شدوق الأراقم ؟ أيتعلل بشىء منها ولا أهل يتعلل بهم ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن ؟

اتخذ الشاعر مواقف متعددة إزاء المجتمع ، فهو طوراً يسعى إلى مداراة أصحابه ، وقلمـا يفعل فيصادق العـدو ومن نكد الدنيا مصادقته ، وهو طوراً — وقد ملّ من المبالاة بالأرزاء — يسعى إلى أن تهون عليه الأرزاء ، وأن يخدر إحساسه بها ، لأنه ما انتفع بالمبالاة . وطوراً ينظر إلى الأيام نظرة عميقة فلا ينكر عليها تقلبها ، ولا يمدحها ولا يذمها ، لأنها تبطن لا عن جهل ، وتكشف لا عن حلم ، ولأنها لا تشبع إلا إذا جاع ، ولا تروى إلا إذا ظمئ ! وفى هذه النظرة يدنو من مذهب القائلين باللاشعور فى الطبيعة . وقد يضطرب هذا الرأى فى نفسه فيتصور أن الناس هم الجانون لا الأيام وحدها ، فيزيد نقمته على المجتمع ، ويصبح لا يميل الى مجازاة الابتسام بالابتسام ، ولا الشك فى كل إنسان ، لأنه واحد من الأنام ، وإنما يريد أن ينتقم من الناس وأن يطأ قلوبهم وآمالهم كما يطأون قلبه وآماله

ومن عرف الأيام معرفتى بها ‏ وبالناس روى رمحه غير راحم

وكيف يكون الذنب كله ذنب الزمان ؟ وربما تحسن الصنيع لياليه وإن كدرته أحيانا . ولـكن هو الانسان الذى يركب فى قناة الزمان سناناً . وقد يسأم الشاعر من هذه المقاومة العنيفة

فيعود الى عدم الاكتراث بدهره ، ويرى أن هـذا المراد الذى تتفانى عليـه نفوس البشر أحقر من أن نتعادى فيه ونتفانى . ولـكنه ينظر الى نفسه فيرى أن هذا المراد الـكبير ، المراد الذى جل أن يسمى — هو سبب شقائه . فلو مال عنه لوجد فى الحياة رغداً كثيرا وراحة كبيرة ، ولـكن ما هى قيمة الحياة بدون مراد كبير ؟ والمتنبى ليس ممن يرضون بميسور عيشهم ! فيتعلل وهو أبلغ تعليل يراه بأن لا عذاب فى العذاب ، وأن كل بعيد الهم فيها معذب

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

فليحمل العذاب فى سبيل ما جل أن يسمى !

هذه مراحل كان يأوى اليها الشاعر فى نضاله ، أقربها تجثم فوقه غيوم سوداء من التشاؤم ، ولقد زاد فى تشاؤمه إحساسه بعظمته التى لا يقنعها مظهر من المظاهر ، وهو الذى كان فى محفل من الناس واليوم أصبح فى محفل من قرود ! ولـكن المتنبى إزاء هذه النوازع هل راح يبغض الحياة ؟ ظل احساس المتنبى برغم هذه العوارض التى ألمت به إحساساً قوياً فنياً ، يحب الحياة ولا ينكر ابتغاء كل نفس للحياة وحرصها عليها وهيامها بها . ومن الذى لم يعشق الدنيا والحياة ؟ ولـكنه لا ينسى أنها لا تنيل أرباً ولا تعطى غاية ولا تسمح بوصال . وقد كان هذا وحده كافياً فى خلق النفور منها ولـكن :

من لذيذ الحياة أنفس فى النفـ س وأشهى من أن يمل وأحلى

وإذا الشيخ قال أف فما ملّ حياة وإنما الضـعف ملا

وإذا كان الشيخ وحده يمل الحياة بسبب ضعفه فليبادر وهو فتى — الى الحياة — يستخلص منها ملذاتها قبل أن تستخلص منه نفسه ، ويجنح الى اللهو فأوقات اللهو تمر سراعاً كأنها كما قال قُبَـل يزودها حبيب راحل ! والزمان لا لذيذ خالص فيه ولا سرور كامل . . . وليت شاعرنا يقنع بهذا التعليل ، فلقد تطغى عليه فى بعض مواطنه موجة من التشاؤم لا نجد لها مثيلاً إلا عنـد المعرى . . . ينظر الى الدنيا وقد أعياه أمرها فيراها خائنة :

. . . أخون من مومس وأخـدع من كفة الحابل

تفانى الرجال على حبها وما يحصـلون على طائل

يراها خائنة معشوقة

ومن لم يعشق الدنيا قليل ولـكن لا سبيل الى الوصال

وقد نظر المتنبى فيما نظر الى الموت وما بعـد الموت ، فكان نظره قصيراً فيما وراء الطبيعة وخياله محدوداً ؛ ليس له رأى ذاتى فيه وإنما يسمع ما قيل ويشك فيما قيل ؟ ولعله سما فى قصيدته التى رثى بها عمة عضد الدولة سمواً يذكرنا بما سما اليه المعرى فى الرثاء . فقد مزج نظرته بشىء من الفلسفة الوثنية التى تعيد الأرواح إلى جوها والأجساد إلى تربها وترى كل شىء معلقاً بالزمان

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه

فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجساد من تربه

يموت راعى الضأن فى جهله ميتة جالينوس فى طبـه

وربمـا زاد على عمره وزاد فى الأمن على سربه

وغاية المفرط فى سـلمه كغاية المفرط فى حربه

لو فـكر العاشق فى منتهى حسن الذى يسبيه لم يسبه

فـكم فى هـذه الصورة الأخيرة من روعة وتشاؤم ! وقد تـكون روعتها فى انطلاقها وإطلاقها الخيال للسامع ، فيصور ويمثل منتهى هذا الحسن الذى يسبيه ، وقد وددت لو أنقل صورة لمثل هذا المنتهى للشاعر الفرنسى « بودلير » فى قصيدته « جيفة » وهل يريد المتنبى من هذا المنتهى إلا هذه الجيفة ؟ وليته رسم لنا خطوطها وأتم صورتها ، ولـكن الموت قد يعكر على المتنبى هناءه ، ولـكنه لا يمنعه منـه وقد يستغل اسمه وهوله — أمام محبوبته ، وجيفته — فيطلب إليها أن تزوده من حسن وجهها قبل أن يحول ، وأن تصله فى هذه الدنيا لأن المقام فيها قليل ، أما رعشـة الموت فهو يحسها ويلمسها ويراها ويدرك كما أدرك المعرى بنظره الشامل أننا :

يدفن بعضنا بعضاً وتمشى أواخرنا على هام الأوالى

وهل فى هذه النظرات العميقة إلا تشاؤم عميق ؟ ولـكنه لم يُسلم صاحبه إلى الاستسلام ؛ تشاؤم يرى كل ما يشق منظره فيحسب يقظات العين حلماً ! ويعفو عن الزمن لأنه لا يعقل أن يلمه ما ليس يبلغه الزمن من نفسه . وهكذا خلق هذا التشاؤم فيـه قوة يعود تعليلها إلى أمور كثيرة ، منها إلى مزاجه ومنها إلى بيئته ؛ وحقاً إذا كان مزاجه العصبى قد أضربه فى موطن

فقد عاد عليه بفوائد كثيرة فى مواطن كثيرة . منها هذه المقاومة العنيفة والمجابهة التى يطفح بها شعره ، وقد كان أولى بهذا التشاؤم أن يقوده إلى ما قاد المعرى إليه برغم أن المعرى لم يُبل فى الحياة والأصحاب بمثل ما ابتُلى به المتنبى

هـذا الجانب من جوانب المتنبى أعجب به وأعتز به لأنه علامة من علامات الرجولة الممسوخة فى هذا الجيل ، تصون عزتها ولا تنسى أن تبرز بذاتها إزاء كل ذات مهما تناهت عظمتها ، وهل تستطيع أن تجد قصيدة لم يطبعها المتنبى بذاته ؟ بل هل كان المتنبى قادراً على التجرد من ذاته ؟ ألا تراه يتغنى فى كل مقطوعة بذاته ؟ ويحن إلى غايته ويطأ هام الملوك والخلائق وينقض على الزمان يراغمه وعلى الحظ يصاوله ، ولعل المتنبى أول شاعر قام يحاول إخضاع الحظ والناس لموازين العقل والذكاء

ولعل أصحابنا النقاد يرون مغامز فى المتنبى ، فيأخذون عليه رياءه ومبالغته وتقلبه ، ويتخذون موقفه مع كافور حجة على غدره وتقلبه . ومثل هذا النقد صدق يشهد به المتنبى وأشعاره ، ولكنى أعتقد أن هذا الرياء الذى تنقم عليه الأخلاق لم يكن إلا رياء فنياً — والرياء الفنى يغمر كل شعرنا وأدبنا ولا يزال ... ولو كان من نوع ذلك الرياء اللين لكان لصاحبه شأن مع رجال الأحكام . وإن شخصيته المتجردة من شعره كانت شخصية عنيفة قاسية لا تهاود فى عزتها . الأمر الذى يدل على أن رياءه هو الرياء الذى تواضع عليه شعراء ذلك العصر وأدباؤه وتقبلوه ولم يستقبحوه

حياة زاخرة بالأهوال والآمال كلما صدع لها الدهر أملاً زادت حزماً وعزماً ، غير مستعظمة إلا نفسها ولا قابلة إلا لخالقها حكماً ؛ حياة تود أن تنفصل عن الناس لتتصل بالناس ، وذات لم يترك لها الدهر مجالاً للنظر فى غير ذاتها ، فى شعرها أثر عصرها وبيئتها ، وفى شعرها أثر العصور . ولعمرى إن هذا لهو الأدب الحى الذى تتوق إليه الآداب العالمية اليوم ، أدب ترتسم فيه الرسالة القومية والرسالة الانسانية ...

ما أفقر أدبنا الحاضر على غناه إلى متنبى جديد يفيض قوة وعزيمة على رغم تشاؤمه ! ولعله إذا عاد يغير شيئاً فى رسالته ويجعلها رسالة قوية يفرضها فرضاً بقوة البيان شاعر ذو كبرياء وسلطان ، على شعب مريض أصبح السائر لا يسير بينه إلا بألف ترجمان

(دير الزور) خليل هنداوى

تاريخ العـــرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصـــل الأول

— ٤ —

مصادر الأخبار :

وإن المصادر الرئيسية الهامة التى تدور حول سبأ وحمير لهى (أولاً) تلك المسماة بالنقوش الحميرية ، و (ثانياً) الأحاديث المنقولة فى الغالب عن الأساطير والتى أبقاها لنا الأدب الاسلامى . وبالرغم من أن اللغة العربية الجنوبية قد ثبتت أقدامها فى بعض الأماكن الجنوبية القاصية حتى عهد النبى أو بعده بقليل ، إلا أنها أخذت تضمحلّ من أمد بعيد بتقوى لغة الشمال الجزلة الرائعة ثم أخذت منذ ذلك الحين تبسط سلطانها دون أن تجد لها منافساً فى رحاب شبه الجزيرة ، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة السابقة لم تتلاش نهائياً . وقد حدث فى القرن السادس الميلادى أن أناخ راكب بدوى بعيره وأخذ يتفرس فى دهشة فى بعض نقوش غريبة على حائط صخرى ، وقارن بين هـذه النقوش العجيبة التى كاد الدهر أن يطمس معالمها وبين البقايا غير الواضحة تماماً للأراضى المجاورة ، التى كانت تفيض بالذكريات الجميلة .

ويسمى المؤلفون المسلمون هذه الخطوط بالمسند ، وإن قليلاً من المسلمين كانوا يستطيعون قراءة حروف هجاء العربية الجنوبية ، بل كانوا ذوى دراية بمبادئ وقواعد علم الأملاء أيضاً ، وهذا يظهر لنا بجلاء من عبارة وردت فى الكتاب الثامن من الاكليل للهمدانى ، ومع أنهم قد استطاعوا تفسير أسماء الأعلام والتعرّف إلى مدلول الكلمات ، إلا أنه لم تكن لديهم معلومات ثابتة عن اللغة نفسها ، وسأشرح فيما بعد كيف كشفت هذه النقوش مرة ثانية بفضل بعض الرحالة الأوربيين ، وكيف فسرت وأوّلتْ حتى غدوا على بينة منها قادرين على اتخاذها أساساً للبحث التاريخى ، وما هى النتائج التى جنوها من دراستهم لهذه الناحية ؛ ولكن قبل أن نأخذ فى شرح ذلك أرى من الضرورى أن أقول لماذا استعملتُ لفظ « العربية الجنوبية » أو « السبئية » القليل التداول بدلاً

من « الخطوط الحميرية » و « اللغة الحميرية » : ذلك أن كلة « حمير » ليست دقيقة إذا أردنا بها لغة هذه النقوش أم النقوش ذاتها ؛ أما من ناحية اللغة فلم تكن خاصة بأهل حمير ، بل كان يتكلمها كل قبائل اليمن المختلفة وأهل سبأ ومعين أيضاً ، وإن اختلفت اللهجات فى كل جهة عن الأخرى . وقد أطلق المسلمون على لغة اليمن القديمة اسم « الحميرية » لسبب بسيط ، ذلك أن الحميريين كانوا أقوى جنس سكن هذه البلاد خلال القرون الأخيرة السابقة لظهور الاسلام . ولو كانت جميع الآثار المكتشفة ترجع إلى عصر السيادة الحميرية لسمعنا عنها فى شىء من اليقين فيمن خلفهم ، ولكن الحقيقة هى أنها ترجع إلى عهد سحيق أيام العصور الأولى التى يرجع بعضها الى القرن الثامن قبل الميلاد ، وربما كان قبل تأسيس الأمبراطورية الحميرية بألف عام ، كما أن لفظ « سبئى » لا يوضح المقصود تماماً لأنه يغلب استعماله لاسم شعب أكثر من أن يكون لقبا سياسياً ، وعلى كل فانى أفضل لفظ « عرب الجنوب » على كل ما عداه

* * *

ومن أول رواد البحث والتنقيب فى بلاد اليمن العالم كارستن نيبوهر Carsten Niebuhr الذى قام بدافع نفسه وللذته الخاصة بأماطة اللثام عن النقوش . وقد طبع عام ١٧٧٢ م كتابه المسمى Beschreibung Von Arabien وقد رن صدى اكتشافاته فى مجامع أوروبا العلمية ورجح الظن بأن حمير وجدت فى بقايا مدينة شهيرة باسم ظفار [١] وفى ذات مرة لقيه أحد الهولنديين الذين اعتنقوا الدين الاسلامى وأطلعه على نسخة من النقوش جمعت كل الحروف الهجائية التى لم تكن معروفة من قبل ، ولكن — كما يقول — « أصابتنى حمى عنيفة فى تلك الآونة ، وكنت أستعد بين كل لحظة وأخرى للموت أكثر مما أعد نفسى لجمع النقوش القديمة [٢] »

وبهذا ضاعت فرصة عظيمة ، ولكن الدهشة عادت ثانية إذ اكتشف البحاثة Ulrich Jasper Seetzen عام ١٨١٠ عدة خطوط فى جوار ظفار ونسخها بيده ، ولكن ما يؤسف له أن السرعة التى لازمت المكتشف جعلت المنسوخ غير متقن الضبط تماما . وقد اشترى أيضاً رسماً أخذه معه وانكب عليه فى أوقات فراغه ناسخاً إياه ، غير أن جهله للروح الأصلية أوقعه فى عدة أخطاء فى الحروف ، وبذلك لم تكن النتائج التى توصل اليها ذات قيمة [١] تذكر . وإن أول منسوخات قيمة للنقوش العربية الجنوبية وصلت إلى أوربا على أيدى الضباط الانكليز المشتغلين بحراسة الشواطئ الجنوبية والغربية لبلاد العرب وفى سنة ١٨٣٨ طبع الليفتنانت ج . ر . وللستد نقوش حصن الغراب ونقب الحجر فى كتابه المسمى Travels in Arabia

وإذا ذاك خطا أميل روديجر أستاذ اللغات الشرقية بجامعة هل (اعتماداً على مخطوطين فى مكتبة برلين الملكية جمعت فيهما كل حروف الهجاء الحميرية) خطا أول خطوة فى سبيل الكشف الصحيح ، فدحض الفكرة القائلة بأن خط العربية الجنوبية يجرى من اليسار إلى اليمين [٢] ، تلك الفكرة التى أقرها « دى ساسى » وصادفت قبولاً عاما ، كما أظهر روديجر أكثر من ذلك أن آخر كل كلمة كان ينتهى بخط عمودى [٣] ، وإن نقوش وللستد و Hulton و Cruttenden قد ألقت بصيصاً من النور على صنعاء ، وفسر رموزها Gesenius وروديجر كل منهما مستقلاً عن الآخر عام ١٨٤١ م

(١) يقول ياقوت الحموى فى (معجم البلدان ج ٤ — ص ٨٦) : « ظفار هى صنعاء نفسها ، ولعل هذا كان قديما . وأما ظفار المشهورة اليوم فليست إلا مدينة على ساحل بحر الهند بينها وبين مرباط خمسة فراسخ » ويقول أيضا « وهى مدينة باليمن فى موضعين : أحدهما قرب صنعاء وبها كان مسكن ملوكهم » ونذكر على سبيل الأدب ما رواه ياقوت أيضا من أنه وجد على أركان سور ظفار مكتوبا « لمن ملك ظفار ؟ للحبشة الأشرار . لمن ملك ظفار ؟ لفارس الأخيار . لمن ملك ظفار ؟ لحمير ستجار » أى سترجع إلى اليمن (المترجم)

(٢) Beschreibung von Arabian, p. 94 ولكى يقف القارىء على مبلغ التقدم العظيم الذى حدث فى سبيل كشف وحل خطوط العربية =

= الجنوبية حتى سنة ١٨٤١ يمكنه مراجعة ما كتبه Rödiger عن هذا الموضوع Excurs ueber Himjaritische Inschriften فى ترجمته الألمانية لكتاب وللستد المسمى : Travels in Arabia ج ٢ ص ٣٦٨ وما يليها

(١) وقد طبعت نقوش جاسبر سيتزن فى المجلد الثانى (ص ٢٨٢ وما يليها فيما ١٨١١) فى Fundgruben des orients أما المشار اليه أعلاه فقد فسرها فيما بعد Mordtmann فى Zeitschrift der Deutschen Morgenländ-is-chen Gesellschaft المجلد ٣١ ص ٨٩ وما يليها

(٢) ولو أن أقدم النقوش تجرى من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال على التعاقب

(٣) Notiz ueber die himjaritische Schrift nebst doppeltem Alphabet dersellen (فى) Zeitschrift für die Kunde des Morgen-lanpes, Vol. I (Goitingen, 1837), P. 332 sqq.

وتقاسمت انجلترا وألمانيا فخر الكشف عن هذه النقوش ، ولكن لم تكد تمضى بضع سنين حتى كانت فرنسا ثالثتهما ، وسرعان ما مضت قدماً فى هذا السبيل وتكللت بحوثها بالفوز العظيم ونالت قصب السبق . وفى عام ١٨٤٣ بدأ توماس أرنود T. Arnaud التنقيب والبحث بادئاً من صنعاء ، ونجح فى الكشف عن بقايا مأرب مدينة سبأ القديمة الشهيرة ، ولم يعبأ بتقهقر صحته ، بل نسخ ما يقرب من خمسين أو ستين مخطوطاً نشرت بعد ذلك فى الجريدة الأسيوية Journal Asiatique وقد عثر فى أسيندر على مترجم ماهر[١] ، وفى سنة ١٨٧٠ تنكر العالم اليهودى Josph Halévy واخترق « الجوف » شرق صنعاء التى لم يخترقها أوربى قبله منذ سنة ٢٤ ق م حينما قاد Ælius Gallus جيشا رومانيا من نفس الطريق ، وقد توصل هذا المكتشف الى نتائج أكثر أهمية بعد أن لاقى كثيراً من المتاعب والأهوال الخطرة ، ثم تمكن هاليفى أن يعود بعد أن نسخ قرابة سبعمائة مخطوط[٢] ، وفى أثناء ربع القرن الأخير جمع E. Glasser و Julus Euting أشياء أكثر أهمية بينما انكباب براتوريوس وهاليفى وميللر وموردتمان وغيرهم على البحث أزاد معلوماتنا عن لغة وتاريخ وديانة عرب الجنوب فى العصر السابق للاسلام

ولا يمكن القول بأن هناك دقة ما سواء فى أسماء الحكام الحميريين — كما يظهر ذلك مما كتبه المؤرخون المسلمون — أم فى الترتيب الذى جرت عليه فى وضعها ، ولو كان هؤلاء أشخاصاً تاريخيين لكان لهم ذكر فيما بعد ، والأرجح أنهم كانوا أمراء غير ذوى أهمية أرجعتهم القصص إلى العصر القديم وخلعت عليهم نعوت العظمة ، وعلى من يعتوره الشك فى هذا أن يقارن الصحف الحديثة بتلك التى استنبطت من النقوش[٣] وقد جمع د . ه . موللير أسماء ثلاثة وثلاثين ملكا من ملوك سبأ ، كما تكرر كثيراً ورود بعض الأسماء — وهذا دليل على قيام الأسر الحاكمة — وكانت تخلع عليهم الألقاب للأبهة ، وقد نجد كثيراً من هذا فى ذَمَرْ عَلِي ذِرِّحْ (الفخم) ويَثْعَمَرْ بَيِّنْ[١] (السامى) وكَرِبيَعِيلْ وَتَارْ يُهَنْعِمْ (أى العظيم النّفّاح) وسمهعلى ينوف . أضف إلى هذا أن الملوك كانوا يحملون ألقابا عدة فى المراسلات تنبئ عن عصور ثلاثة فى تاريخ البلاد العربية كمكرب سبأ أو ملك سبأ وملك سبأ وريدان ، وبهذه الطريقة يمكننا أن نحدد على وجه التقريب عصر المبانى والنقوش المختلفة ، وأن نظهر أنها لا تنتمى إلى العصر المسيحى ، ولكنها تسبقه أحياناً بثمانية قرون على الأقل

وإن البون الشاسع الذى يفصل بين قوم سبأ وحمير المحبين للتجارة والسلام وبين العرب الهمج الذين بعث فيهم محمد (صلعم) ليظهر على أشده فى خضوع الأولين لآلهتهم التى تعد أساس الآثار الجنوبية العربية كما ذكر ذلك جولد زيهر[٢] . فكان الأمير يشيد معبداً للآلهة شكراً لنصرها إياه على أعدائه ويبارك الكاهن أبناءه وممتلكاته ؛ أما المحارب الذى فاز بقتل أعدائه أو بالأسلاب أو بنجاته من المنية فيقدم فروض الشكر ويتوسل فى ضراعة أن يكون على الدوام متقلباً فى أعطاف رعايتها . وكانوا يعتقدون أن الموتى يعيشون سعداء تحت رحمة إلهية كما كانوا يوقرونهم بل ويعيدونهم أحياناً[٣] ، وإن العبارة التالية التى ترجمها الكولونيل W. F. Prideaux لهى أوضح مثال على هذا وهى :

« لقد تقدم سعد الله وبنوه بنو مرثد بهذه اللوحة إلى مَقَهْ هِرَّانْ (سيد الأوّام ذو عِران أَلِى) الذى تفضل بسماع الرجاء المرفوع إليه حينما أهدى اليه بنو مَرْثَدٍ أول ثمار أرض أرْهَقِم وان مَقَهْ هِرَّانْ قد تعهد بحماية سهول ومراعى هذه القبيلة فى مساكنهم لقاء ما يقدمونه اليه من الهدايا الكثيرة طول العام ، والحق أن أبناء سعد الله سينزلون أرض أرهقم وسيقربون الضحايا فى حرمى عشْتر وشمس وسيكون هناك قربان آخر فى هرّان (وكلا العملين بغية أن يتكفل حرْوَت بحماية

(١) Arnaud : Relation d'un voyage à Mareb (Saba) dans l'Arabie méridionale (Journal Asiatique) فى المجلة الاسيوية المجموعة الرابعة ج ٥ (١٨٤٥) ص ٢١١ وما يليها ، ص ٣٠٩ وما يليها

(٢) Rapport sur une mission archéologique dans le yémen فى الجريدة الأسيوية المجموعة السادسة ج ١٩ (١٨٧٢) ص ٥ — ٩٨ ، ١٢٩ — ٢٦٦ ، ٤٨٩ — ٥٤٧

(٣) D. H. Müllr : Die Burgen und Schlösser Südarabiens (فى S. B. W. A. Vol. 97, p. 981 seq)

(١) راجع الرسالة العدد الماضى ص ١٨٤٧ عمود رقم ١ هامش رقم ٣ (المترجم)

(٢) Goldziher : Muhammedanis-che Studien, Part I, p. 3.

(٣) F. Praetorius : Unsterblichkeitsglaube und Heiligenverehrung bei den Himyaren فى Z. D. M. G. المجلد ٢٧ ص ٦٤٥ وقد ذكر Hubert Grimme تفصيلا وافيا عن الآراء الدينية وعادات العرب الجنوبين فى : Weltgeschichte in Karakterbildern : Mohammed (Munich, 1904) p. 29 sqq.

حقول بنى مرثد ، والتفضل بسماع شكواهم) وكذلك تقرب القرابين فى معبد مقه حَرْوَتْ ، ويقتضى ذلك يتهيأ له المحافظة عليهم بناء على السنة التى اتبع نهجها سعد الله والتى شاهدها فى معبد مَقَهْ النعمان ، أما مَقَهْ هرّان فقد وقى أرض أرهقم الخصبة من الصقيع والطوارئ أو بعبارة أخرى من البرد القارس والحر اللافح[1] »

وقبل أن أختم هذا البحث القائم على البيان الناقص عن نقوش العربية الجنوبية لابد لى من أناشد فطنة قرائى الذين يعلمون كم يكون من الصعب أن يكتب المرء بوضوح ودقة عن موضوع ليست مصادره الأولى فى متناول يده ، خاصة إذا كانت نتائج البحث السابق تنقض على الدوام بيد العاملين الحديثين فى نفس الميدان

ومن حسن الطالع أن يكون تحت يدنا مرجع دقيق واف لتلك البقايا القليلة الناقصة ؛ فمعلوماتنا عن جغرافية بلاد العرب الجنوبية وعن الآثار والتاريخ القصصى مُستقى جلها من كتابات شخصين من أهل اليمن تفيض كتاباتهما بالحماسة للمجد القديم والفخر به ، وتعتبر أقوالهما — المتضاربة بين الحق والخرافة — من وجهة النظر الحاضرة — عملاً له قيمته ، وهذان الكاتبان هما حسن بن أحمد الهمدانى ونشوان بن سعيد الحميرى ، وفضلاً عن كتاب جغرافية العرب القيم المسمى « صفة جزيرة العرب » الذى طبعه د . ه . مولّير ، فقد ترك لنا الهمدانى كتابا عظيما آخر فى تاريخ اليمن وآثارها ، ذلك هو « الاكليل » وينقسم إلى عشرة كتب هذا بيانها[٢]

الكتاب الأول : موجز تاريخ أصل الانسان ونشأته

الكتاب الثانى : تاريخ نسب الهميسع بن حمير

الكتاب الثالث : بخصوص صفات قحطان الممتازة

الكتاب الرابع : بخصوص العصر الأول من التاريخ إلى حكم تبع أبى بكر

الكتاب الخامس : بخصوص العصر المتوسط من عهد أسعد تبع الى عهد ذى نواس

الكتاب السادس : بخصوص العهد الأخير حتى ظهور الاسلام

الكتاب السابع : نقد البدع الفاسدة والروايات الكاذبة

الكتاب الثامن : القلاع والمدن والقبور التى شيدها الحميريون وشعر علقمة[1] والمراثى والنقوش وغيرها

الكتاب التاسع : ويتضمن حِكَم الحميريين وأمثالهم فى اللغة الحميرية وأحرف هجاء النقوش

الكتاب العاشر : بخصوص نسب قبيلتى حاشد وبقيل (كبيرتى قبائل همدان)

(يتبع) ترجمة محمد حبشى

---

(١) Transactions of the Society of Biblical Archaeology, Vol. 5, p. 409

(٢) نقل هذا الجدول : د . ه ميللر فى (Südarabische Studien ص ١٠٨ هامش رقم ٢) من الصفحة الأولى من مخطوط الكتاب الثامن من الاكليل الموجود فى المتحف البريطانى ولا يعرف أن هناك نسخة كاملة من هذا الكتاب ، ولكن بعض أجزاء كبيرة منه محفوظة فى المتحف البريطانى وفى مكتبة برلين الملكية

(١) هو علقمة بن ذى جدن الذى اقتبس كثيراً من شعره فى شرح القصيدة الحميرية

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

— ٢ —

وما فرغ زارا من كلامه حتى ارتفع صوت من الحشد قائلاً (لقد كفانا ما سمعنا عن البهلوان ، فليبرز لنا الآن لنراه)

فضحك الجميع مستهزئين بزارا ، وتقدم البهلوان ليقوم بألعابه وهو يعتقد أنه كان موضوع الحديث

— ٤ —

وبهت زارا مجيلاً أنظاره فى القوم ، ثم قال :

ما الانسان إلاّ حبل منصوب بين الحيوان والانسان الكامل فهو الحبل المشدود فوق الهاوية

إن فى العبور للجهة المقابلة مخاطرة ، وفى البقاء وسط الطريق خطرا ، وفى الالتفات إلى الوراء وفى كل تردّد وفى كل توقف خطرٌ فى خطر

إن عظمة الانسان قائمة على أنه مَعْبَرٌ وليس هَدَفاً ، وما يُستحبُّ فيه هو أنه سبيل وأفق غروب

إننى أحب مَنْ لا غاية لهم فى الحياة إلا الزوال ، فهم يمرون ما وراء الحياة ، أحب من عظم احتقارهم لأنهم عظماء ، المتعبدين يدفعهم الشوق إلى المروق كالسهام إلى الضفة الثانية

أحب من لا يتطلبون وراء الكوكب معرفة ما يدعو إلى زوالهم أو ما يهيب بهم إلى التضحية ، لأنهم يقدّمون ذاتهم قرباناً للأرض ، لتصبح هذه الأرض يوماً ميراثاً للانسان الكامل

أحب من يعيش ليتعلّم ، ومن يتوق إلى المعرفة ليحيا الرجل الكامل بعده ، فأن هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله

أحب من يعمل ويخترع ليبنى مسكناً للانسان الكامل فيهيئُ ما فى الأرض من حيوان ونبات لاستقباله . فان هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله

أحب من يحب فضيلته ، فما الفضيلة إلا الطموح إلى الزوال وإن هى إلاّ السهم تُنشبه أشواقه

أحب من لا يحتفظ لنفسه بشرارة واحدة من روحه ، فيتجه إلى أن يكون بكليته روحا لفضيلته لأنه بهذا يجمل روحه يجتاز الصراط

أحب من يكوّن من فضيلته ميوله ومطمحه ، لأنه بمثل هذه الفضيلة يتوق إلى إطالة حياته كما يتوق إلى قصرها

أحب من لا يريد الاتصاف بعديد الفضائل ، إذ فى الفضيلة الواحدة من الفضائل أكثر مما فى فضيلتين ، والفضيلة الواحدة حلقة ترتبط فيها الحياة

أحب من يجود بروحه فلا يطلب جزاء ولا شكوراً ، ولا يسترد ، فهو يهب دائماً ولا يفكر فى الاستبقاء على ذاته

أحب من يخجل من سقوط زهر النرد لحظه فيرتاب بغشّ يده ، إن أمثاله هم التائقون إلى الزوال

أحب من يبذل الوعود وهّاجة ثم يتجاوز عملة وعده ، إن أمثاله هم التائقون إلى الزوال

أحب من يبرر أعمال الخلف ويدافع عن السلف لأنه بذلك يسلّم نفسه إلى نقمة معاصريه ، فهو ممن يتوقون إلى الزوال

أحب من يعلن حبه لربه بتوجيه اللوم اليه ، إذ يجب أن يهلك بغضب ربه

أحب من يبلغ التأثر أعماق روحه فى جراحها فيعرضه أتفه حدث للفناء ، إن أمثاله يعبرون الصراط دون أن يترددوا

أحب من تفيض نفسه حتى يسهى عن ذاته ، إذ تحتله جميع الأشياء فيضمحل فيها ويفنى بها

أحب من تحرر قلبه وتحرر عقله حتى يصبح دماغه بمثابة أحشاء لقلبه ، غير أن قلبه يدفع به إلى الزوال

أحب جميع من يشبهون القطرات الثقيلة التى تتساقط متتالية من الغيوم السوداء المنتشرة فوق الناس ، فهى التى تنبئُ بالبرق وتتوارى

ما أنا إلا منبئٌ بالصاعقة ، أنا القطرة الساقطة من الفضاء ، وما الصاعقة التى أبشر بها إلا الانسان الكامل

— ٥ —

وبعد أن ألقى زارا هذه الكلمات أجال أنظاره فى الحشد

وسكت ثم قال فى قلبه : لقد تملكهم الضحك ، فهم لا يفهمون ما أقول ، وما أنا بالصوت الذى يلائم هذه الأسماع

أعلىّ أن أسد آذانهم ليتمرنوا على الاصغاء بعيونهم ؟ أم يجب أن أضرب الصنج أسوة بوعاظ الصيام ؟ لعلّ هؤلاء القوم لا يثقون إلا بالألكن من المتكلمين

إنّ لهؤلاء الناس ما يباهون به فما عساه أن يكون ؟

إنهم يسمونه مدنيـةً ليميزوا بها أنفسهم من الرعاة . فهم لذلك ينفرون من لفظة الاحتقار إذا ما ذكرت فى معرض الكلام عنهم ، فلسوف أخاطبهم إذن عن غرورهم

سأخاطبهم عن أحقر الكائنات ، عن الانسان الأخير ، وتوجه إلى الحشد قائلاً :

لقد آن للانسان أن يضع هدفاً نصب عينيه ، لقد آن له أن يزرع ما ينبت أسمى رغباته ، مادام للأرض بقية من ذخرها ؛ إذ سيأتى يوم ينفذ هـذا الذخر منها فتجدب ويمتنع على أية دوحة أن تنمو فوقها .

ويل لنا ! لقد اقتربت الأزمنة التى لن يفوّق الانسان فيها سهام شوقه محلقة فوق البشرية إذ تخونه قوسه وتتراخى أوتارها

الحق ما أقوله : لن يخرج من الانسان كوكب وهّاج للعالم حين تزول بقية السديم من نفسه ، وهذا السديم لم يزل فيكم

ويل لنا ! لقد اقتربت الأزمنة التى لن يدفع الانسان فيهـا بالكواكب للعالم . ويل لنا ؟ لقدَ اقترب زمان الانسان الحقير الذى يمتنع عليه أن يحتقر نفسه

اسمعوا ! هأنذا منبئكم عن الرجل الأخير

إنه من يقف متسائلاً عن نفسه فلا يعلم أمحبة هى أم إبداع أم تشوق ، أم توهج كوكب

وستصغر الأرض فى ذلك الزمان فيصطفر على سطحها الرجل الأخير الذى يحول إلى حضارة كل ما يدور به ، إن سلالة هذا الرجل لا تباد ، فهى أشبه بالبراغيث ، والانسان الأخير أطول البشر عمراً

ويقول أناسى الزمن الأخير متغامزين : لقد اخترعنا السعادة اخترعا

لقد هجر هؤلاء البقاع التى تقسو عليهـا الحياة ، لأنهم شمروا بحاجتهم إلى الحرارة فأصبح كل واحد يحتك بجاره وقد احتاجوا إلى الدفء جميعاً

إنهم يقتحمون الحياة باحتراس لأن الوجل والمرض فى عينهم خطأ ، وما سلم من الجنون من يتعثر منهم بالحجارة وبالناس

إنهم يأخذون قليلاً من السموم حيث يجدونها طلباً لملاذ الأحلام ويكرعون منها ما يكفى دفعة واحدة طلباً للذة الموت

وإذا هم عملوا فانمـا يعملون للتسلية محاذرين أن تذهب هذه التسلية بهم إلى حدود الانهاك

ليس بينهم من يصبح غنياً أو يمسى فقيراً ، وكلا الفقر والغنى يجلب الضنى ، وما منهم من يطمح إلى الحكم أو يرضى بالخضوع وكلاهما محرج مرهق

ليس هنالك راع وليس هنالك إلا قطيع واحد . إن كلاً من الناس يتجه إلى رغبة واحدة ، فالمساواة سائدة بين الجميع . ومن اختلف شعوره عن شعور المجموع يسير بنفسه مختاراً إلى مأوى المجانين

ويغمز أمكر هؤلاء الناس بعينهم ويقولون : لقـد كان الجميع مجانين فيما مضى

لقد ساد الاحتراس بين هؤلاء القوم لأنهم أخذوا بالعبر ، فهم يتلقون الحادثات متهمكين ، وإذا نشأ بينهم خلاف بادروا إلى حسمه صلحاً ، لأنهم يحاذرون أن تصاب معدهم بالعلل والادواء

لهؤلاء الناس لذاتٌ للنهار ولذاتٌ أخرى لليل ، غير أنهم يراعون صحتهم أولاً

« لقد اخترعنا السعادة اختراعاً » ذلك ما يقوله أناسىّ الزمن الأخير وهم يغمزون

عند هذا أنهى زارا خطابه أو بالحرى تمهيد خطابه فتعالت أصوات التهاليل من الحشد وهو يقول :

« إلينا بهذا الرجل الأخير يازارا ، اجعلنا على مثال أناسى الزمن الأخير فقد تخلينا لك عن الانسان الكامل

ولكن زارا وجم أمام هذا الحشد يسوده مثل هذا الروح فاستولى الحزن عليه وقال فى نفسه :

إنهم لا يفهمون كلامى ، فلست بالصوت الذى تتطلبه هذه الأسماع

لقد عشت طويلاً فى هذه الجبال وأنصت طويلاً الى هدير الغدران وحفيف الأشجار فأنا أكلم هؤلاء الناس الآن كأننى أخاطب رعاة الماعز

إن روحى صافيــة تغمرها الأنوار كما تغمر القممَ تباشيرُ الصباح ، ولـكنهم يحسّـون بالصقيع فى قلبى ويحسبوننى مُهرِّجاً يأتيهم بالمفجع من النكات

ها هم أولاء يحدجوننى بأنظارهم ويتضاحكون ، ففى قلبهم ثورة البغضاء وعلى شفاههم بسمة الثلوج

— ٦ —

وطرأ حادث كمّ الأفواه واسترعى الأبصار ، وكان البهلوان بدأ بألعابه فاندفع من النافذة وأخذ يتمشى على الحبل الممدود بين برجين فوق الساحة وما عليها من المتفرجين وما وصل إلى وسط الحبل حتى فتحت النافذة مرة ثانية واندفع منها فتى مخطط بالألوان كالمهرجين وسار متبعاً خطوات البهلوان صارخاً :

— إلى الأمام أيها الأعرج ! إلى الأمام أيها الـكسلان ، أيها المرائى ذو الوجه الشاحب ! اذهب لئلا تداعبك نعلى ، ماهو عملك بين هذين البرجين ؟ أفليس فى البرج مكان سجنك ؟ إنك تسد الطريق فى وجه من هو أفضل منك »

وكان الفتى يتقــدم خطوة كلـا قال كلمة حتى أصبح قاب قوس من البهلوان ، وعندئذ وقع الحادث الذى كمّ الأفواه واسترعى الأبصار . فان الفتى لم يلبث أن صرخ صرخة الجن وقفز فوق المقبة القائمة فى سبيله . ولـما رأى البهلوان انتصار خصمه عليه أخذه الدوار وخلت رجله عن الحبل فرمى عارضة التوازن من يديه وسقط فى الفضاء حيث لاحت رجلاه ويداه كعجلة تدور فى الهواء

وماج الحشد على الساحة كالبحر اجتاحته العاصفة الهوجاء وانفرط الناس مولين الأدبار وانفرج المـكان حيث كان يتجه الجسم بانحداره

ولـكن زارا لم يتحرك فوقع الجسم على مقربة منـه حيث تقطعت أوصاله وتهشم غير أنه كان لم يزل حياً ، وما عتم أن عاد روع الجريح إليه فرأى زارا جاثياً قربه فرفع رأسه وقال له :

— ماذا تفعل هنا ؟ ما كنت أجهل أن الشيطان سيضل خطواتى يوماً وها هوذا الآن يجرنى إلى جحيمه ، أفتريد أن تمنعه ؟

فقال زارا :

— وشرفى يا صديق إن ما تذكره لا وجود له ، فليس من شـيطان وليس من جحيم ، إن روحك ستموت بأسرع من جسدك فلا تخش بعد الآن شيئاً

فرفع الرجل بصره مشكـكاً وقال :

إذا كان ما تقوله صحيحاً فأننى لا أفقد شيئاً بفقـد الحياة . فلست أنا إذن إلا حيوانا رقّصت بالضرب وغُذّيت بأنخر غذاء

فقال زارا : لا ، ليس الأمر كما تقول فأنك اتخذت المخاطرة مهنة لك ولم يكن فيها ما يشين . أما الآن فمهنتك هى أن تفنى ، من أجل هذا سأدفنك بيدىّ

ولم يحر المدنف جواباً بل حرك يده باحثاً عن يد زارا ليصافحها دلالة على شكره

(يتبع) فيلكس فارس

النظرية العامة للالتزامات

فى الشريعة الاسلامية

للدكتور شفيق شحاته

٣

ملاحظات موضوعية على المؤلفات — أول ما يلاحظ على الفقهاء أن نظرهم لم يتجـه أثناء وضعهم للحلول إلى طريقة تطبيق أحكامهم . فتلك الناحية العملية لا تكاد تظهر خلال جدلهم وأبحاثهم

على أن هـذا ليس معناه كما ادعاه بعض المستشرقين أن التشريع الاسلامى لم يوضع إلا على أنه مثل أعلى ، يوصى باتباعه ، وأنه فى الواقع ونفس الأمر ، لم تتبع أحكامه فى الدول الاسلامية ، فإنا ، وقد رجعنا فى بحثنا الى كثير من الأوراق البردية المثبتة للوثائق القانونيـة مما كان يجرى به التعامل فى العصور الأولى للاسلام ، وإلى أحكام محكمة مصر الشرعية القـديمة ، ويرجع بعضها إلى أكثر من خمسمائة سنة خلت ، نستطيع أن نؤكد فيما يتعلق بموضوع الالتزامات أنه لم يكن هناك تشريع أو قواعد أخرى متبعة فى المعاملات سوى قواعد الشريعة الاسلامية

وإذا كانت هـذه القواعد قد خولفت بالفعل فى بعض الأحايين ، فقد كان ذلك خضوعا لظاهرة معروفة ، وهى أن الاحتياجات العملية تخلق دائما بجانب التشريع قواعد أكثر مرونة تلطف من حدته

من ذلك — وهـذا فى نظرنا ، دليل على حيوية التشريع الاسـلامى — ما وضعه الفقهاء من « الحيل » لتلافى بعض ما وضعوه من القواعد التشريعية الجامدة

على أن هذه الحيل تندمج تماما فى الهيكل التشريعى ، لأنها لا تصدم قاعدة من قواعده ، فهى عبارة عن عقود أو إقرارات صورية ، تنطبق عليها الأحكام التى وضعت للصورة التى اتخذتها لا لحقيقتها ، وقد ساعد على نجاح هذه الوسائل قواعد الاثبات وأحكام الصورية فى التشريع الاسلامى

فالحيل إذن ستكون محل دراستنا ، على أنها الجانب الحى للتشريع الاسلامى ، وهى قد كانت موضعاً لعناية (محمد) نفسه وهو أحد واضعى المذهب

وتظهر أيضاً الناحيـة العملية للفقه الاسلامى من خلال كتب « الشروط » ، وقد عنيت هذه الكتب بوضع صيغ لكتابة العقود والاقرارات . وقد اهتم بهذه الناحية أيضا (محمد) فى « المبسوط » ؛ على أن لهذه الناحيـة من الفقه فقهاءها الاخصائيين ، نذكر منهم (أبا زيد الشروطى) و (الطحاوى)

ويتضح لمن يتصفح كتب الشروط هذه أنها لم توضع لمجرد النظر : فهى تراعى دائما الاحتياجات العملية ، وتحيط العاقد علما بما يجب أن يتخذ لنفسه من الحيطة فى اشتراطاته مع اختلاف المذاهب

وهـذه الصيغ لا تخلو من « الرطانة » القضائية كتكرار الألفاظ والمبالغة فى الاحتياطات ، ومن الغريب أنها على قدم عهدها يرد بها عبارات تشبه كثيراً ما نقرؤه فى العقود التى تحرر فى أيامنا هذه

وتظهر أخيراً الناحية العملية من خلال « الفتاوى » ، وهى مؤلفات جمعت ما أجاب به المفتون عما عرض عليهم من الأسئلة فى حوادث واقعية ، ولدينا من هذه المجموعات ما يرجع عهده الى سنة ١١٠٠ هـ ، وهى جميعها تتبع آثار الكتب الفقهية ، ولا تحيد عن الأحكام التى وردت بها قيد أنملة

ومما يؤخذ أيضاً على المؤلفين اهتمامهم الزائد بدقيق التفصيلات وتفننهم فى افتراض المسائل البعيدة الوقوع

وإن كان هذا التطرف فى التصورات ، وهـذا التوغل فى الدقائق قد أفاد التشريع بعدد وفير من الأفكار والآراء ، فانهما مع ذلك قد أساءا إلى الروح القانونية . ذلك أن هذه الروح تمج التدنى الى صغائر المسائل كما تمج الدقة التى تتطلبها الرياضيات . فما يثقل على القانونى ، أن يرى المؤلفين يسترسلون فى عمليات حسابية معقدة

ويلاحظ أن المتـأخرين قد وقعوا فى محظور آخر ، وهو التراشق بالأدلة اللفظية البحتة ، والاعتماد فى الاستدلال على المنطق المجرد

الروح العامة للفقه الاسلامى — يظهر لنا أن هناك نزعات ثلاثاً تسيطر على التشريع الاسلامى

(١) أما الأولى فهى النزعة الفردية . وقد يذهب البعض الى أن هناك نصوصا كثيرة ترمى الى حماية مصالح الجماعة . على أن هذه النصوص لا تنهض دليلاً على أن النزعة الفردية ليست متغلبة ذلك أن التشريع الاسلامى اصطبغ فى الأصل بصبغة دينية . فهو يرمى بطبيعته الى توفير السعادة على الفرد . والفرد — مهما حاول أنصار الاشتراكية فى عهدنا هذا — سيبقى دائما أبدا هو الغاية التى يسعى اليها كل تشريع ، وإذا غلبنا فى بعض الاحيان مصلحة الجماعة فليس ذلك فى الواقع إلا لكونها تتضمن فى نفس الوقت مصلحة الفرد

(٢) أما النزعة الثانية فهى السعى وراء العدالة المطلقة عن المساواة . وقد ظهرت هذه النزعة فى نظرية الالتزامات فى صورة المساواة بين المتعاقدين . على أن الفقهاء قد توغلوا فى هذا الاتجاه الى أقصى حدوده ، ومن آثار هذه النزعة نظرية الربا

(٣) والنزعة الثالثة ترمى الى الابتعاد عن كل ما من شأنه خلق القلق أو المنازعات فى المعاملات . لذلك هم ينفرون من الغرر على كافة صوره . وقد توسعوا فى بيان أحكام الجهالة الفاحشة واليسيرة . وذلك كله اتقاء للمنازعات . وسنرى أن هذه النزعة أيضا قد ذهبت بهم بعيدا

وأخيرا نقول كلمة عما وضع فى القرن التاسع عشر الميلادى من التقنينات فى التشريع الاسلامى

أما « المجلة العدلية » فقد قام بوضعها فى آخر عهد الدولة العثمانية فريق من الفقهاء . وقد جعلوا منها مجموعة نصوص أوردوها تحت أرقام متسلسلة . على أنهم لم يحاولوا قط إخضاع المسائل لقواعد عامة تكون هى موضوع المواد . فالمواد جاءت بالمسائل على أنها مسائل . وإن قليلاً من المواد جاءت بتعاريف ، منقولة هى كذلك عن الكتب الفقهية

وقام بعد ذلك فى مصر (قدرى باشا) ، فوضع كتابا سماه « مرشد الحيران » ذكر به مجموعة من الأحكام الشرعية على نسق القوانين المصرية . على أن محاولته وضع نظرية للالتزامات لم تفلح ، فاكتفى بذكر طرق انقضاء الالتزامات وبعض أوصافها ، وإن المواد التى وردت بها هذه الأحكام لا تخلو مع ذلك من الأغلاط . أما نظرية العقد كما أوردها فهى فى الواقع نظرية عقد البيع

القانون المقارن — أما وقد بينا منهاج بحثنا فى التشريع الاسلامى ، نتساءل هنا هل يجدر بنا بعد الوصول الى تعرف حقيقة هذا التشريع الرجوع الى غيره من التشريعات لمقارنته بها

قد يبدو هذا ضروريا فى زمن يكاد لا يخلو مؤلف فيه من مقارنة الشرائع . ولكنا رأينا الاعراض عن هذا الاتجاه ، لنتمكن من توجيه جميع جهودنا نحو بناء هيكل التشريع الاسلامى فى موضوع الالتزامات ، حتى إذا ما تم هذا البناء ، نكون قد مهدنا لمن يهمه ذلك ، أن يقوم بدراسته المقارنة على أسس متينة

وهذا كله لا ينفى أننا فى الواقع قد رجعنا الى أكثر من تشريع واحد فى موضوع دراستنا هذه . فانا لم نخط سطرا واحدا إلا بعد إعمال الفكر فى مختلف التشريعات ، ليصح فهمنا ، ووضعنا للمسألة على وجهها المطلق . فالمقارنة قد تمت بالفعل ، ولو أن القارىء لا يقرؤها فى الغالب قراءة العين

ونلاحظ هنا أنه من السخف محاولة الوصول عن طريق مقارنة الشرائع الى أصدار الأحكام التقويمية على هذه الشرائع . فان التشريع كما قلنا ظاهرة من الظواهر الاجتماعية مقيد ككل ظاهرة بظروف الزمان والمكان ، ويخضع كذلك لمنطقه هو نفسه ، وإذا كان يجوز للغريب عن العلوم القانونية أن يدهش لغرابة بعض الأحكام ، ففقيه النفس يرى فيها على العكس دليلا جديداً على أن العقل البشرى قد جاهد وناضل فى مختلف البيئات فى سبيل الوصول الى « الحقيقة القانونية »

مقارنة المذاهب — وقد استبعدنا كذلك مقارنة المذاهب واكتفينا مؤقتاً بدراسة مذهب (أبى حنيفة)

ذلك أنه قد تبين لنا أن الفقه الحنفى يمثل التشريع الاسلامى فى أولى صوره وأنقاها ، ولا نرى مجاراة ما هو شائع من أن المذهب الحنفى هو أقرب المذاهب الى التشريعات الحديثة ، فهو

أبعدها عنها وإن كان فى مسائل العبادات يبدو أكثرهم تسامحا من غيره

أما التقسيم المشهور للمذاهب ، ما بين أهل الرأى وأهل الحديث ، فهو أيضا تقسيم لا نرى له معنى . فان جميع المذاهب فى الواقع تلجأ الى الاستدلال العقلى . سواء منها المالكية والشافعية والحنبلية . فمن المعروف أن نظرية « المصالح المرسلة » عند المالكية ، و « الاستصحاب » عند الشافعية ، تؤديان ما يؤدى إليه « الاستحسان » عند الحنفية . وهذا التقسيم لا يفيد سوى أن الفقه الاسلامى قد انتابه ما انتاب غيره من التشريعات . ففيها جميعها يتجاذب المفسرين دائما تياران ، تيار التوسع ، وتيار التضييق فى التفسير

ونلاحظ أنه فى موضوع الالتزامات قد راعى فقهاء المذاهب غير الحنفية احتياجات الحياة العملية أكثر مما صنعه فقهاء الحنفية . وذلك على رغم أن الأولين يتمسكون بالأحاديث فى أكثر المسائل خلافا للأخيرين . ويبدو لنا أن فقهاء الحنفية قد اجتهدوا فى جعل بنائهم التشريعى محكماً ، ففاتهم شىء من المرونة . أما الفقه المالكى فهو ظاهر الأخذ بما يتطلبه العمل من القواعد المعقولة . أما الفقه الشافعى فقد بقى متردداً بين النزعتين . بينما الفقه الحنبلى قد اكتفى بتخير الآراء من مختلف المذاهب ، ولم يظهر عليه أى طابع خاص . وفقه الشيعة يقرب كثيرا من فقه الشافعية

يتضح مما تقدم أنه من المفيد إن لم يكن من الضرورى إفراد الفقه الحنفى بدراسة خاصة . وفى الواقع أن الصناعة مختلفة فيه عنها فى المذاهب الأخرى . وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هناك تشريعاً مالكياً ، وتشريعاً شافعياً ، وتشريعاً حنبليا كذلك

ونذكر هنا أنه قد حاول بعض الفقهاء فى هذه المذاهب الارتقاء الى المبادىء العامة ، ومنهم (القرافى) فى الفقه المالكى ، و (العز بن عبد السلام) فى الفقه الشافعى ، و (ابن رجب) فى الفقه الحنبلى ، وفى الفقه المالكى نوع من المؤلفات وردت بها أحكام المحاكم ، وقد سميت « بالعمليات »

ونذكر أخيراً أنه قد اكتشف المستشرق (جريفينى) كتاباً فى فقه الشيعة الزيدية ، قال عنه إنه أقدم ما وجد من كتب الفقه الاسلامى

وقد اهتم بعض الفقهاء منذ العصور الأولى ، بإيراد أحكام المذاهب المختلفة مجتمعة ، وهو ما يسمونه بعلم « الخلافيات » . نذكر منهم (الطبرى) و (الشعرانى) ؛ على أن هذا العلم لا يفيد فى دراسة موضوعية للنصوص ، ذلك أنهم يوردون الأحكام ، كلا منها بجانب الآخر ، منتزعة من مذاهبها ، والمسألة اذا انتزعت هكذا فقدت الكثير من قيمتها ، وقد حاول (الشعرانى) التقريب بين مختلف المذاهب ، على أساس من الصوفية لا يهمنا

ومما تقضى به الطريقة التى نقول بها الاستعانة بكتب الطبقات ، وتاريخ القضاة ، والتاريخ العام لتتبع التطور التاريخى للتشريع ، وتقضى كذلك بالرجوع الى ما وصلنا اليه من الوثائق عما جرى عليه العمل بالفعل ، من قواعد التشريع الاسلامى ، كالأوراق البردية ، وما قد يرد فى كتب الآداب العامة من النصوص القانونية

(انتهى) شفيق شحاته

من زوايا الشباب

لمياء إن سالت براعة شاعر   يشكو الغرام تسيل فيك جروحي
شرح الصبابة في الوجوه فطالعي   في ناظريّ ووجنتيّ شروحي
لم يبقَ لي فكر لنظم قصيدةٍ   إلاّ موشّح دمعيَ المسفوح
أفقدتني عقلي فقلتُ أردّه
بالبعدِ عنكِ فكدتُ أفقدُ روحي

الشاعر القروي

عيني عليك

يا نجمةً في سماء الحسن طالعة
عيني عليكِ ولكن أين منكِ يدي ؟!
إحدى يديَّ إلى علياكِ أرفعها
مستعطفاً ويدي الأخرى على كبدي
أليس تشجيكِ شكوى شاعرٍ ملأت
آهاته الأرض وامتدّت إلى الجَلَد
أما تهيجكِ أنّاتٌ يرجّعها   مستوحشاً وبشير الصلح لم يفدِ
هذا المحبُّ وهذا وصف حالته   يُجْنَى عليه ولا يجني على أحد
لم تُبقِ منه عيون الغانيات سوى
شيء من الروح في شيء من الجسدِ

فرحات

من طرائف الشعر المهاجر

كبد من تراب

تمر الليالي كرّ السحابْ
وتمضي الأماني كومض البروقْ
فحتّامَ يغمر هذا الضبابْ
حواشي نفسي فلا تبصرُ
وتبحث عنك فلا تعثرُ
تراها أضاعت إليكِ الطريقْ

* * *

وكل جمالٍ عيوني تراه
ولحنٍ شجيٍّ بسمعي استقرْ
وكلُّ عبيرٍ يفوحُ شذاهْ
وكل نسيم عليل بليلْ
يحدث عنك وما من سبيلْ
إليكِ وقد طال هذا السفَرْ

* * *

حنينٌ وشوقٌ وحبٌّ دفينْ
تُكابدُه كبدٌ من ترابْ
فإن يكُ في الأرض ماء وطين
يحولُ ويفصلُ ما بيننا
وكنت اتخذتِ السُّهى موطناً
فياربِّ عجّل بيوم الذهابْ

م . معلوف

هي الدنيا

عادت إلى الأشجار أوراقها   وعادت الدنيا تثير الشجون
تذكّر المسكين وادي الحمى   ونام بالأحلام تحت الغصون
مرّي عليه اليوم ريح الصبا   وأيقظيه من سبات الجنون
تحرشي بالورق   وأسمعيه الحفيف
ردي إليه الرمق   من قبل يأتي الخريف
يوم تمرّين على نائم   أحلامه قد بددتها المنون

* * *

قالوا ربيع قلت أين الصبا   أين الفراشات وأين الطيور ؟
أيام أعدو خلفها حافياً   وكيفما في الحقل دارت أدور
طائرة لكنني مثلها   من فرحي ما بين تلك الزهور
وكل ما في الوجود   لنا حلال مباح
لا عاذل لا حسود   لا غُرْبةٌ لا انتزاح
هذا ربيع أعطني مثله   وخذ إذا ما شئت كل الدهور

(الولايات المتحدة)   رشيد أيوب

القصص

من الأدب الإيطالي

الوسيط

للقصصي الإيطالي «بوكاشيو»

بقلم محمد عبد اللطيف حسن

كان في فلورنسا منذ قريب سيدة إيطالية حسناء تدعى ريتولا ، وقد اشتهرت هذه السيدة بين أهل بلدتها بمكرها ودهائها وسعة حيلتها ، وكان ذكاؤها وفطنتها مثار دهشتهم ، وموضع إعجابهم . ومما يؤسف له أنها كانت متزوجة من تاجر غني لا يفهم الحياة إلا من ناحيتها المادية ، ولا يهتم بشيء قدر اهتمامه بما يجنيه من ربح ومنفعة من وراء تجارته ! أما حاله مع زوجته فلم تكن حال الزوج الموافق المهتم ! وهذا ما دعاها إلى النفور منه والميل إلى غيره

وقد أسعدها الحظ حينئذ برؤية شاب جميل كان دائم المرور أمام منزلها فأحبته حباً جماً وأصبح لا يهنأ لها بال أو يسعد لها حال ما لم تره مرة في كل يوم على الأقل ! ! وكان هذا الشاب — واسمه تنكريد — يجهل في مبدإ الأمر تعلقها به ، وعنايتها بأمره ، فلم يلتفت إليها ولم يهتم بها

وبالرغم من أن تجاهله لها كان يضايقها ويكدر عليها صفوها ، فإنها كانت حريصة فلم تحاول الاتصال به عن طريق الاستفسار عنه أو إرسال الرسائل إليه خشية أن يلحظ أحد علاقتها به أو يكتشف سر حبها له ؛ وهداها تفكيرها آخر الأمر الى أن تلفت نظره اليها وتجتذب قلبه نحوها عن طريق قسيس ورع كان من أخلص رفقائه وأكثرهم له وفاء ومحبة

وبعد أن اختمرت هذه الفكرة في رأسها ذهبت إلى الكنيسة التي يقيم بها هذا القسيس وابتدرته بقولها :

— لقد جئت إليك يا سيدي أطلب معونتك في أمر مهم سأشرحه لك . ولعلك تذكر أنني أخبرتك في مرة سابقة عن أقاربي وزوجي الذي يحبني أكثر من حبه لحياته ، والذي لم يتأخر في يوم من الأيام عن تحقيق ما أطلبه منه ! ! ولهذا أحببته أنا الأخرى حباً شديداً وأصبحت لا أطيق الفراق عنه أو أستطيع الحياة بدونه ! ! أما ما جئت إليك اليوم من أجله فهو أن هنالك شاباً يدعى تنكريد ، وهو كما علمت من بعض الناس صديق حميم لك ، اعتاد أن يمر من أمام منزلي كل يوم ، وفي كل مرة يمر فيها أراه يرمقني بنظراته التي تدل على شدة حبه لي ، وكثرة هيامه بي . وقلما يحول بصره عني طيلة الوقت الذي أكون فيه مطلة من نافذة غرفتي . فاضطر إلى مغادرة النافذة أو إغلاقها في وجهه خشية أن يتقول عليّ الناس بما يشين سمعتي أو يسيء إلى شرفي . وليس ببعيد يا سيدي أن يكون تنكريد هذا قد تعقب خطاي ورآني وأنا أدخل هذه الكنيسة ، أو من المحتمل أن يكون الآن في انتظاري خارجها ! وأصدقك القول يا سيدي أن هذا الأمر قد أصبح يضايقني أكبر المضايقة ، ويؤلمني أشد الألم . بل لقد بلغ الأمر بي إلى حد أنني أصبحت أفضل الموت على أن أكون مضغة في أفواه الناس !

وبعد أن استراحت برهة قصيرة تابعت حديثها فقالت :

— وكثيراً ما فكرت ياسيدي في أن أحيط إخوتي أو زوجي علماً بهذا الموضوع الشائن ، ولكني لا ألبث في كل مرة أن أحجم عن ذلك حينما أتذكر أن الرجال غالباً ما ينهون مثل هذه الأمور بالضرب المؤلم الذي قد يفضي إلى الموت في كثير من الأحيان ! وأخيراً استقر رأيي ، حقناً للدماء وحسماً للنزاع ، على أن أطلب مساعدتك لسببين : الأول أن هذا الشخص صديقك فتستطيع من هذه الناحية أن تردعه بنفسك ؛ والثاني أن من أهم واجبات القسيس الورع التقي إصلاح سيئات الناس وخطاياهم سواء أكانوا أصدقاء أم غرباء . وأنا أتوسل إليك ياسيدي أن تنصح صديقك هذا بالكف عن مغازلتي

والامتناع عن النظر إليّ . وإذا كان لا بد له من هـذه المغازلة فهناك كما أعلم سيدات كثيرات غيري يتمنين من صميم أفئدتهن أن يكن عشيقات وفيات له ! !

ولما انتهت بريتولا من بث شكواها نكست رأسها كما لو كانت توشك أن تبكي من شدة الحزن والتأثر ! !

ولم يشك القسيس الساذج في شيء مما قالته ، بل أخذ على العكس يمتدح خصالها الطيبة ويثني على حسن تصرفها ورجاحة عقلها ! ! ووعدها أخيراً بتحقيق رجائها وإجابة ملتمسها . .

وقبل أن تغادر بريتولا الكنيسة قالت للقسيس الطيب القلب :

— ولا تنس يا سيدي أن تخبر تنكريد إذا دفعته الجرأة إلى انكار شيء مما قلته لك ، بأنني قد أتيت إليك بنفسي واعترفت أمامك بكل شيء . .

***

وفي اليوم التالي أرسل القسيس في طلب صديقه تنكريد . ثم انتحى به جانباً وأخذ يلومه بلهجة هادئة ، وعبارة متزنة ، على تصرفه الشائن مع بريتولا . .

ودهش تنكريد بطبيعة الحال لهذا الاتهام الذي لم يخطر على باله ، لأنه ، كما قلنا ، لم يرفع بصره الى بريتولا في مرة من المرار التي كان يمر فيها أمام منزلها ؛ وبالرغم من أنه نفى عن نفسه هـذه التهمة بشدة ، فان صديقه القسيس لم يصدق ذلك وقال :

— لا تتظاهر بالدهشة يا عزيزي من هذا الأمر ، ولا تحاول أن تنكر هذه التهمة لأنني سمعتها من شفتي بريتولا نفسها . .

وبعد أن سكت برهة قال :

— ولعلك تعلم يا تنكريد أن هـذا السلوك الشائن وذلك التصرف السيء لا يليقان برجـل فاضل مثلك ، وإني أنصحك نصح الصديق المخلص أن تدع هذه السيدة الفاضلة تعيش في هدوء وسلام مع زوجها الذي تحبه إلى حد العبادة ! ولا تحاول أن تقلق راحتها أو تفسد حياتها مرة أخرى . .

ولم يغب عن بال تنكريد غرض بريتولا من هذا الاتهام الكاذب . وقبل أن يغادر الكنيسة وعد صديقه ألا يعرض لبريتولا ولا أن يضايقها بعد ذلك . فاستراح القسيس لهذا الوعد وشكره على شهامته ونبل أخلاقه

وقصد تنكريد من فوره إلى منزل بريتولا . ولحسن حظه وجدها في انتظاره كالمعتاد في نافذة غرفتها

وما كادت بريتولا تراه وهو مقبل على منزلها حتى ابتسمت له ابتسامة خبيثة ماكرة ، وتجلى البشر والسرور في قسمات وجهها ، وحيته بهزة خفيفة من رأسها الجميل

وتأكد تنكريد الآن أنه لم يكن مخطئاً في زعمه ، فابتسم لها ابتسامة رقيقة عذبة ورد تحيتها بأحسن منها . .

ومنذ هذا اليوم أخذ يصوب نظره اليها في كل مرة يمر فيها من أمام منزلها ، فكان ذلك سبباً في سرورها وغبطتها . .

***

والظاهر أن بريتولا لم تكتف بهذا الفوز الباهر بل أرادت أن تتقدم في سبيل حبها خطوة أخرى . فذهبت الى القسيس وألقت بنفسها بين قدميـه ، وأخذت تبكي بكاء مراً . فدهش القسيس وسألها عن سبب بكائها ! فأجابته بريتولا دون أن تكف عيناها عن البكاء

— إنني أبكي ياسيدي بسبب صديقك الملعون الذي شكوته اليك من قبل

فقطب القسيس ما بين حاجبيه وسألها قائلا :

— ألا يزال هذا الرجل يضايقك ؟

فأجابته بريتولا وهي تبكي :

— نعم . فمنذ أن شكوته إليـك وهو لا يفتأ يضايقني بنظراته الوقحة ، ويؤلمني بابتساماته السخيفة . وليس هذا فقط . بل أنه بعد أن كان يمر من أمام منزلي مرة واحدة أو مرتين في اليوم أصبح يمر الآن ما لا يقل عن سبع مرات ! !

وبعد أن نهنهت دموعها الجارية تابعت حديثها فقالت :

— وليت الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، فبالأمس أرسل إليّ من قِبله عجوزاً لا أعرفها . وبعد أن عرفتها بنفسي أعطتني حقيبة جلدية نفيسة ومنديلا حريريا غالي الثمن ، وقالت لي وهي تبتسم ابتسامة ذات معنى إنهما مهداتان إليّ من تنكريد ! ولا أكتمك ياسيدي أنني غضبت لذلك غضباً شديداً وكنت على وشك أن أطردها هي وهدية تنكريد خارج منزلي ، لولا أنني خشيت أن تحتفظ بالحقيبة والمنديل لنفسها دون أن تخبره برفض هديته ! ففضلت أن آخذهما منها ؛ وقد رأيت من الواجب أن أحضر معي هذه الهدية لكي تردها اليه وتخبره بأنني لست في حاجة الى شيء منه . وأرجو أخيرا أن تحذر صديقك هذا بأنه إذا لم يكف عن مضايقتي ، فأنني سأضطر حتما الى إخبار زوجي

أو إخوتى بكل شىء مهما كانت النتائج التى تترتب على ذلك

قالت ذلك وقدمت الحقيبة والمنديل للقسيس وهى تتظاهر بالحزن والغضب لأهانة تنكريد إياها ! !

وظن القسيس لسذاجته وسلامة صدره أن ما قالته بريتولا قد حدث بالفعل ، فغضب لذلك غضبا شديداً ، وقال لها بعد أن فكر برهة :

إننى لا أستغرب ياسيدتى شدة حزنك لهذا الأمر ، ولست ألومك بالطبع على شىء مما حدث . بل إننى على العكس أشكرك على اتباعك نصيحتى ، وعملك بمشورتى . ومع أننى لمت تنكريد عنـد ما زارنى لأول مرة ، فانه على ما يظهر لم يرعو عن غيه ، ولم يرتدع عن ضلاله ، ولهذا عولت على أن أوبخه توبيخاً شديداً على هذا السلوك المعيب . وأرجو ياسيدتى ألا تنقادى لعاطفتك فتخبرى زوجـك أو إخوتك بهذا الأمر ، فان نتائجه السيئة لا تخفى بالطبع على سـيدة عاقلة مثلك ، بل اتركى كل شىء وأنا أتصرف فيه بعقلى وحكمتى

* * *

وما كادت بريتولا تبرح الكنيسة حتى أرسل القسيس فى طلب صديقه تنكريد مرة أخرى . فلما جاء قابله بوجه عابس وجبين مقطب . واستنتج تنكريد من ذلك أنه لابد وأن تحادث مع بريتولا فانتظر بفارغ صبر ما سيقوله له . ولم يطل انتظاره طويلاً إذ انهال عليه القسيس بوابل من الشتائم واللامنات بعد أن أعاد على مسامعه كل ما ذكرته بريتولا له .

وبالرغم من أن تنكريد أنكر بشدة إرساله الحقيبة والمنديل الى بريتولا ، إلا أن القسيس لم يصدق قوله ، بل اشتدت حدته وازداد غضبه عن ذى قبل ثم قال :

— كيف تنكر ذلك أيها الشرير المنافق مع وجود الدليل المادى على ارتكاب فعلتك ؟

ثم نهض من مقعده ، وأحضر الحقيبة والمنديل وناولهما إياه ثم قال :

— أليس فى هذا الكفاية ؟ فشعر تنكريد — مع براءته — بالخجل لوجود ذلك الدليل القاطع ، ولما لم يجد بداً من الاعتراف بهذه التهمة المنسوبة اليه قال :

— نعم . لقد أرسلت الى بريتولا هذه الهدية لأننى كنت أحبها كغيرها من النساء ، ولـكنى بعد أن تأكدت الآن أنها تختلف عنهن كل الاختلاف ، فانى أعدك بشرفى ألا أرتكب ما يسىء سمعتها أو يجرح شعورها . وثق ياسيدى أنك لن تسمع منها بعد اليوم شكوى

ولم ينس تنكريد أن يأخذ معه الحقيبة والمنديل قبل أن يغادر الكنيسة بعد أن اقتنع تماما من أن بريتولا تحبه حباً جماً ، وتهيم به هياماً شديداً ، وأنها مافعلت ذلك إلا بدافع هذا الحب والهيام ...

وقصد تنكريد من فوره إلى منزل بريتولا حيث كانت لحسن الحظ فى انتظاره كالمعتاد ، وما كاد صاحبنا يلمحها من بعيد حتى أخرج من تحت ابطه الحقيبة والمنديل وأراها إياها . فسرت بريتولا سروراً شديداً لأنها عرفت حينئذ أن خطتها المرسومة سائرة فى طريق التقدم

* * *

ولم يبق إلا غياب الزوج عن منزله لتكلل خيانة بريتولا بالنجاح التام . ولم يطل انتظارها طويلاً إذ اضطر الزوج بعـد بضعة أيام من وقوع الحادث السابق الى السفر الى جنوا ، للقيام باحدى المشاغل الضرورية التى تتطلبها طبيعة عمله

وذهبت بريتولا الى القسيس مرة ثالثة عقب سفر زوجها مباشرة وقالت له وهى تبكى :

— لقد سبق أن قلت لك يا سيدى بصراحة أنه لا يمكننى أن أحتمل مضايقة تنكريد أكثر من ذلك . ولما كنت قد وعدتك بألا أقدم على عمل شىء قبل مشورتك ، فقد جئت إليك اليوم لأشكو لك من صديقك تنكريد ..

فذهل القسيس حينما سمع منها ذلك وسألها قائلاً :

— ألا يزال هـذا الملعون يضايقك ؟؟ فقالت له : بريتولا وهى تتظاهر بالحدة والغضب :

— نعم . فى مساء الليلة الماضية دخل حديقة منزلى بعد أن علم بسفر زوجى إلى جنوا — ولست أدرى كيف — وتسلق إحدى الأشجار إلى نافذة غرفتى ، والتى كانت لسوء حظى مفتوحة فى ذلك الوقت . وكنت على وشك أن أصرخ عندما رأيته فى غرفتى لولا أنه توسل إلىّ ألا أفعل ذلك ، ورجانى بأن أكون رحيمة به فلا أرتكب ما يلفت أنظار الناس إليـه . وأقول لك الحق يا سيدى إننى خضعت لتوسلاته ولم أفعل شيئاً أكثر من أننى طردته من نفس النافذة التى جاء منها ثم أغلقتها وراءه بشدة ..

وبعد أن سكتت برهة تابعت حديثها فقالت :

— والآن أرجو أن تحكم ياسيدى بنفسك فى هذا الأمر وتخبرنى هل فى إمكانى أن أحتمل مضايقة تنكريد أكثر من ذلك ؟؟ أو ليس من الواجب أن أخبر إخوتى بما فعله حتى يردوه إلى صوابه ، ويعيدوا إليه ما عزب من عقله ؟؟

واحمر وجه القسيس حينما سمع ذلك وفار دم الحنق والغضب حاراً فى عروقه وقال :

— وهل أنت متأكدة من أن الذى دخل غرفتك إنما هو تنكريد دون غيره ؟؟

فأجابته بريتولا وهى لا تزال تبكى :

— وهل يمكننى يا سيدى أن أخطئ فى معرفته بعد كل ذلك ؟؟ فأنا واثقة تمام الثقة من أن الشخص الذى دخل غرفتى إنما هو تنكريد نفسه . وإذا تجاسر وأنكر ذلك أمامك — وهذا ما سيفعله بالطبع — فأرجو منك ألا تصدقه ..

وبعد أن مرت بين الاثنين فترة سكوت قصيرة قطعها القسيس بقوله :

— إن ما فعلته يا سيدتى إنما هو الصواب بعينه ؛ وقد قمت بواجبك خير قيام . ولست أنكر أن عمل تنكريد فى منتهى الخسة والدناءة ، ولكنى مع ذلك أستحلفك بالله أن تتركى هذا الأمر لى مرة أخرى دون أن تخبرى إخوتك بشىء مما حدث ؛ وسترين بعد ذلك إذا كان فى إمكانى أن أقوم اعوجاج تنكريد . فاذا أفلحت كان بها ، وإذا فشلت فسأترك لك الخيار فى أن تتصرفى فى هذا الأمر كما تشتهين ..

وقبل أن تغادر بريتولا الكنيسة قالت للقسيس وهو يودعها :

— تأكد ياسيدى بأنى لن أضايقك بهذه المسألة بعد الآن . وقد استقرر رأيى على ألا أخبرك بشىء فى هذا الموضوع مطلقاً

* * *

وما كادت بريتولا تبرح الكنيسة حتى استدعى القسيس صديقه تنكريد بعد أن استقر رأيه على أن يزجره زجراً شديداً وأن يعنفه تعنيفاً قاسياً . ولما حضر قابله بوجه مقطب ، ومظهر قاس ، ثم انتحى به ناحية من الكنيسة وأخذ ينهال عليه بالشتائم واللعنات التى كانت تزداد حدتها شيئاً فشيئاً ، بينما جلس الآخر فى مكانه هادئاً ساكناً كما لو كانت هذه الشتائم واللعنات موجهة إلى غيره ! وأخيراً تضايق تنكريد من تأنيب القسيس وقال :

— ما الذى فعلته يا صاحبى حتى استحق منك كل هذه الشتائم ؟

فازداد غضب القسيس لهذا الانكار وضحك ضحكة ساخرة ثم قال :

— ألا تدرى ماذا فعلت أيها الأحمق ؟؟ إنك تتكلم كما لو كان هذا الأمر لا يعنيك ..

فتظاهر تنكريد بالدهشة وقاطعه بقوله :

— عن أى أمر تتحدث يا مولاى ؟؟

فحملق القسيس فى وجهه بشدة وقال :

— أين كنت فى مساء الليلة الماضية ؟؟

فأجابه تنكريد بهدوئه وسكونه المعتاد :

— لست أدرى بالضبط يا سيدى !!

فازدادت ثورة القسيس ثم قال :

— سأخبرك أين كنت أيها المخادع الشرير !!

وبعد أن استجمع شتات تفكيره تابع حديثه فقال :

— لقد دخلت حديقة بريتولا فى مساء الليلة الماضية ثم تسلقت إحدى الأشجار إلى غرفتها ، وكاد أمرك يفتضح لولا أنها أشفقت عليك ورأفت بك ولم تفعل شيئاً أكثر من أنها طردتك من نفس الطريق الذى جئت منه !!

ولم يغب عن بال تنكريد ماذا تقصده بريتولا من هذا الكلام الذى قالته للقسيس ، وأخذ يفكر فيما يجب عليه أن يفعله فى مساء تلك الليلة ، ولكن القسيس ما لبث أن قطع عليه حبل تأملاته فقال :

— إنك تظن أيها المنافق أن فى امكانك أن تحمل هذه السيدة الفاضلة على حبك .. ولكن لا ! ولست أغالى اذا قلت لك انك أصبحت الآن أبغض الناس اليها ، وأثقلهم على قلبها ! وليس هذا فقط ، بل أنك أمسيت فى نظرها كالطاعون الذى لا يترك انساناً الا بعد أن يفتك به ! حقاً إنك لم تستمع لنصحى ولم تأبه لارشادى ، ولكنى أؤكد لك بأن الأمر قد خرج الآن من يدى . فاذا لم ترتدع ، فستضطر بريتولا الى إخبار إخوتها أو زوجها بكل ما فعلته معها ، وفى هذا كما تعلم ويل وعذاب لك ..

وبعد أن هدَّأ تنكريد ثورة القسيس بوعوده وتوسلاته غادر الكنيسة وهو على أشد ما يكون من الفرح والسرور

* * *

البريد الأدبي

كتاب عن البحر الأبيض

أضحى البحر الأبيض مسرحا للمنافسات الدولية المزعجة ، وأضحت مشاكله من أعقد المشاكل الدولية وأخطرها ؛ وقد ظهر أخيراً بالانكليزية كتاب عن هذا البحر ومشاكله السياسة والعسكرية الكبرى بعنوان « البحر الخطر » The Dangerous Sea بقلم الكاتب والصحفي الانكليزي الكبير جورج سلوكومب ؛ ويقسم الكاتب كتابه إلى خمسة أقسام يتحدث فيها عن المسائل السياسية والدولية والبحرية والعسكرية ، ثم عن المشاكل والاحتمالات الغامضة التي تثيرها ظروف هذا البحر الجغرافيـة من جبل طارق إلى جزائر الدوديكانيز ؛ ويمهد لموضوعه بنبـذة تاريخية عن هذا البحر ، والأمم التي قامت على ضفافه منـذ غابر العصور ، ثم يتحدث عن مركز انكلترا في جبـل طارق ، وكونها تقبض على مفتاح البحر من غربه ، ويقول إن سلامة جبل طارق وسلامة السيادة البريطانية هنالك تتوقفان على علاقة انكلترا بالدولة التي تسيطر على قلعة سبتـة المراكشية ، وعلى استمرار حالة الحياد القائمة في ثغر طنجة

وينوه المؤلف بموقف إيطاليـا الحالي ، ويقول : إنه أول موقف من نوعه تنازع فيه دولة عظمى سيادة بريطانيا في هـذا البحر منـــذ عصر نابوليون ، ولأول مرة قد افتتحت قناة السويس ، وتحولت تجارة الغرب إلى الشرق عن طريقها ، وغدا البحر الأبيض شريانا حيويا للامبراطورية البريطانية ، تنهض دولة واقعة في منتصف الطريق ، وتلقى إشارات لا ريب فيها بأنهـا تستطيع أن تقطع المواصلة بين جبـل طارق وقناة السويس ؛ ويقرن المؤلف ذلك باحصـاءات دقيقة عن القوات البحرية والعسكرية التي تملكها دول البحر الأبيض : فرنسا وإيطاليـا ويوجوسلافيا وبلاد البلقان وتركيا

ويعطف المؤلف بعد ذلك على مركز إيطاليا في ألبانيا وعلى مسألة العلائق المصرية الانكليزية ، وعلى مركز الدردنيل وموقف روسيا ، ثم على نهضة البلاد العربية التي أخذت تبدو بكل شكل واضح ؛ ثم يتحدث عن الحرب الأهلية الاسبانية ، ويبين مكامن الخطر فيهـا على السلام الأوربي ، سواء نجحت الثورة القائمة فيها أم أخفقت

ويشعر القارئ عند قراءة هذه الفصول القوية الواضحة التي يستعرض فيهـا المستر سلوكوب مشاكل البحر الأبيض ، أن الخطر يجثم هنالك في كل ناحية من نواحيه ، وإن هذا العامل الذي لم يحسب حسابه من قبل في السياسة الأوربية قبل أن تستكمل إيطاليا تسلحها وأهباتهـا العسكرية يغدو اليوم من أخطر وأهم العوامل التي يتوقف عليها سير السلام الأوربي وتتوقف عليها سلامة الامبراطورية البريطانية

عبقرية فنان مسلم

نوهت الصحف الفرنسية أخيراً بعبقرية فنان جزائري مسلم يدعى السيد محمد راسم ، يعرض رسومه الآن في معرضه الخاص بباريس في شارع فوبور سانت أونوريه . ومما قالته جريدة الايكودي باري في ذلك : إن المرء ليشعر بعاطفة من الهدوء والنبل

وفي المساء ذهب الى منزل بريتولا ثم دخل الحديقة وتساق الشجرة التي تؤدي الى نافذة غرفتها ، والتي تركتها مفتوحة لهذا الغرض . ولما دخل الغرفة قابلته حبيبته بشغف ظاهر وسرور عظيم ، وتعانق الاثنان عناقاً حاراً وهما يشكران هـذا القسيس الذي كان واسطة التعارف بينهما !

ومن بعد هذا اليوم أصبح العاشقان الفاسقان يتقابلان دون أن يحتاجا الى وساطة هذا القسيس الطيب القلب !!

محمد عبد اللطيف حسن

والغبطة حينما يتأمل رسوم محمد راسم ؛ وإن أولئك الذين يزعمون أن الزخرفة الاسلامية متماثلة يرون ما يبهرهم فى تنوع النماذج التى يقدمها وفى طرافتها ، وفى ذلك المزيج المدهش الذى يتجلى فيها سواء من حيث التناسق أو اللون أو الأسلوب ؛ ومنها نماذج فارسية ومغربية ومصرية تنم كلها عما يحتويه الفن الاسلامى من فن التوازن والتناسق وقوة الاعراب والتأثير

ويعرض محمد راسم أيضاً صوراً صغيرة بعضها يمثل مناظر تاريخية مشتقة من التاريخ الاسلامى ، وبعضها يمثل مناظر عربية ؛ كما أنه يعرض قطعاً فنية من الخزف البديع تمثل مناظر مدهشة من وقائع القرصان الجزائريين فى القرن السابع عشر ، ومناظر الفرسان المسلمين

والواقع أن الفن العربى لم يفقد شيئاً من طرافته ولا أوضاعه التقليدية ، وفى وسعه أن يعبر بكل قوة وبراعة عن مناظر عصرنا ، وفى وسعه بنوع خاص أن يعبر دائماً عن تلك الأفكار والمناظر التى خلدها الشعر العربى وأذاعها فى العالم بأسره

هذا قول الكاتب الفنان فى الصحيفة الفرنسية ، فما قول سادتنا المتفرنجين الذين ينكرون على الفن الاسلامى كل فضائله ومزاياه ؟

جائزة نوبل للطب

من أنباء استكهلم (السويد) أن جائزة نوبل للطب والفسلجة لسنة ١٩٣٦ قد تقرر منحها للأستاذ السير هنرى هالت ديل عضو المجمع الوطنى للمباحث الطبية بلندن ، والأستاذ أوتو ليفى النمسوى الأستاذ بكلية جراتس ، وذلك لمباحثهما المتعلقة بالتأثيرات الكيماوية للمؤثرات العصبية

والمعروف عن الأستاذ ليفى أنه أول من اكتشف أثر التفاعل الكيماوى فى الاهتزاز العصبى ، فاذا انطلقت الهزة إلى الأنسجة العصبية واستقرت فى العضل نشأت عنها مادة كيماوية فى العصب النهائى ، واستطاع العصب أن ينقل هزاته بواسطة هذه المادة

وقد توسع السير هنرى ديل فى تطبيق هذه النظرية ؛ وهو يقسم حسب مباحثه أعصاب الجسم الى مجموعتين ؛ فالمجموعة الأولى تفرز مادة كيماوية تسمى « الأدرينالين » ، والمجموعة الثانية تفرز مادة تسمى « اكتلكولين » ، وأهمية هذا التقسيم فى أن هنالك مؤثرات معينة يمكن إحداثها فى الأعضاء وفى هيكل الجسم بالحقن بمثل هذه المواد وبمواد معينة تحدث أثراً يقلد فى هزاته هزات الأعصاب الطبيعية

وجائزة نوبل للطب تبلغ نحو عشرة آلاف جنيه انكليزى وستوزع مناصفة بين العالمين الكبيرين

شارل موراس محرر لاكسيون فرانسيز

قرأنا فى الصحف الفرنسية الأخيرة نبأ اعتقال شارل موراس الزعيم والكاتب الملكى الشهير وزجه فى سجن « سانتيه » ليقضى فيه عقوبتين حكم بهما عليه من جراء مقالات عنيفة كتبها فى جريدة « لاكسيون فرانسيز » ضد بعض رجال الحكم ؛ وشارل موراس كاتب وروائى من أعظم كتاب فرنسا المعاصرين وصحفى من الطراز الأول ، وقد اشتهر بنوع خاص بمقالاته فى لاكسيون فرانسيز وما تمتاز به من تصوير عنيف وقوة نقدية لاذعة ، وبلاغة ساحرة فى نفس الوقت

وقد نشرت الصحف الفرنسية بهذه المناسبة بعض تفاصيل عن النظم المتبعة فى تنفيذ أحكام الحبس التى يقضى بها فى جرائم الرأى أو الجرائم السياسية ، والتى عومل بها شارل موراس ؛ وهى فى الواقع نظم مريحة عادلة ؛ فالكاتب المحكوم عليه يحجز فى غرفة خاصة بها الأثاث الكافى ، وله أن يتسلم بريده الخاص من رسائل وكتب وصحف وغيرها ، كما أن له أن يستقبل زواره طبقاً لقائمة يقدمها بذلك ويصادق عليها مدير البوليس ؛ وله أن يطلب على نفقته ما شاء من ألوان الطعام إذا لم يوافقه طعام السجن ، وأن يستبقى ملابسه العادية ، وأن يستحضر منها ما شاء ، كما أن له أن يتريض داخل السجن طبقاً لنظام معين

وهكذا يستطيع الكاتب المعتقل أن يزاول داخل السجن عمله العادى من قراءة وكتابة . ومن ثم فان شارل موراس سيكتب مقاله كل يوم وتنشره لاكسيون فرانسيز كالمعتاد . وتتحدث الصحف على اختلاف نزعاتها عن الكاتب السجين بعطف ، ويشير البعض إلى أن شارل موراس قد يرشح خلال اعتقاله لعضوية الأكاديمية الفرنسية

الكتب

١ – فى سنن الله الكونية

تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوى

٢ – النتائج السياسية للحرب العظمى

ترجمة الأستاذ محمد بدران

للأستاذ محمود الخفيف

— ١ —

تفضل الأستاذ الغمراوى فأهــدى إلى كتابه « فى سنن الله الكونية » فرأيت وقد فرغت من قراءته أن أقدمه الى قراء الرسالة ، ولكننى أحس أنى كى أصف موضوع هذا الكتاب وصفا صادقا ، ولكى أقدره حق قدره فى مثل هاتيك المجالة ، ينبغى أن أتجاوزه الى كلمة عن مؤلفه ، وإن كنت أشعر أن ذلك سوف لا يرضيه

يجمع الأستاذ بين خلتين قليل اجتماعهما لشخص : فهو من ناحية شديد الاخلاص لدينه مع التفقه فيه ، ومداومة البحث فى مسائله ، حتى لكأنك منه حيـال رجل يقصر على الأمور الدينية همه ؛ وهو من ناحية أخرى رجل من رجال العلم المعروفين بالفطنة وسعة الاطلاع مع الدقة وحب البحث ، ثم هو من الناحيتين يكاد يعطيك نموذجا صحيحا لتلك « الحلقــة المفقودة » التى نتوق الى وجودها لنصل بها ما بين الثقافتين العلمية والدينية

فاذا قلت لك بعد هذا أن الكتاب صورة من صاحبه فقد قربت موضوعه الى ذهنك ، واستطعت بعد أن أزيدك معرفة به

كان من حسن التوفيق أن انتــدبت الجامعة الأزهرية الأستاذ الغمراوى فيمن انتدبت من الأساتذة ، فهذا الكتاب « ثمرة تدريس علم سنن الله الكونية فى السنة الأولى من قسم الوعظ والارشاد بكلية أصول الدين . وعلم سنن الله الكونية هو العلوم الطبيعية مطبقة على الدين »

بدأ الأستاذ هذا الكتاب بفصل ممتع بين فيــه بيان خبرة ووثوق أن ليس ثمة أى تناقض بين حقائق العلم وحقائق الدين ، وهو يؤيد دعواه بالحجة مستشهداً بآى الذكر الحكيم ، فلا يسعك إلا أن تسلم معه بأن « العلم قرآنى بموضوعه » وأنه « قرآنى بطريقته » ، فقرآنية العلوم الطبيعية واضحة ملموسة فيما ورد فى الكتاب الكريم من آيات التدبر والتفكر فيما خلق الله فى السموات والأرض ؛ وسبل العلم فى طلب أسرار الفطرة أو فى تفهم سنن الله فى كونه هى السبل التى أمر القرآن باتباعها من حيث تمحيص الحقائق والاستناد الى البراهين وتحكيم العقل . والاعتماد الى جانب ذلك على المشاهدة

راح الأستاذ بعد هــذا يعرض المسائل العلمية التى يشتمل عليها كتابه ، وهو فيها مقيد بمنهج دراسى خاص ؛ وأحب أن أشير هنا الى أنى كنت أحسبنى قبل قراءتها حيال مسائل لا تهم كثيراً من يشتغل بالأدب ، ولكنى قرأتها فى يسر واستمتاع وخرجت منها وقد كسبت من المعارف ما صرت أعتقد أنه لا غنى عنه لمن يطلب الثقافة . فالكتاب إذاً يستطيع أن يقرأه الانسان على أنه كتاب عام لا كتاب مدرسى ؛ وبهذه المناسبة يجدر بى أن أقرر أن الأستاذ قد توخى فيه سهولة العبارة وبساطة توجيه المسائل ، وفى مثل هذا العمل لا ريب من العناء ما يعرفه كل من حاول أن يقرب الى الأذهان موضوعات يعلم أنه يطرقها لأول مرة

هذا ولم يقف جهد الأستاذ المؤلف عند تبسيط المعلومات وحسن توجيهها ، بل إنه تمشيا مع طريقة كتابه يقف عند المناسبات المختلفة ويشير الى الآيات القرآنية التى تتصل بالموضوع فيعرضها فى لباقة ووضوح مبيناً لك مراميها وإعجازها فى غــير تكلف أو إلتواء ، وتلك هى فى الحقيقة حسنة الكتاب . وإذا كان لى أن آخذ على الأستاذ شيئاً ، فذلك أنه مع مثل هذا الاستعداد وهذه المزايا ، لا يخرج لنا كتابا واسعا يبسط فيه موضوع العلاقة بين العلم والدين ، ذلك لأنه « إذا تم للانسان هذا الجمع بين العلم والدين

ثم ما يصح أن يسمى بعلم سنن الله الكونية ، واستطاع الانسان أن يدرس العلم بروح العبادة من غير أن يضحي بشيء من دقة العلم ، وأن يدرس الدين ويطبقه بروح العلم من غير أن يضحي بشيء من عبادة الدين ، وهنالك يتم للانسان الاتحاد بين عقله وقلبه ، وبين علمه ودينه ، وهذا شيء ممكن تماماً في الاسلام

— ٢ —

يأتي بعد ذلك الكلام على الكتاب الثاني « النتائج السياسية للحرب العظمى » . وهو كتاب ألفه بالانجليزية الأستاذ رمزي ميور أستاذ التاريخ الحديث بجامعة منشستر سابقاً ، وترجمه إلى العربية الأستاذ محمد بدران ، وقدمته لجنة التأليف والترجمة والنشر إلى الجمهور كحلقة من سلسلة معارفها العامة ، تلك السلسلة المباركة التي أخرجت اللجنة عدة حلقات منها في نواحي المعرفة المختلفة من فلسفة وتربية وأدب وتاريخ وغيرها ، والتي ستوالي اللجنة بعون الله إصدار بقية حلقاتها حتى تشمل جوانب النهضة العلمية في مصر والعالم العربي

أثرت الحرب العظمى تأثيراً عظيما في مجرى تاريخ العالم وخلف ذلك الحادث من النتائج مالا تزال أوروبا حتى اليوم تخضع لمؤثراته . ولقد شمل أثر الحرب جميع نواحي الحياة من فكرية وفنية واقتصادية ، ولكن أثرها في الناحية السياسية كان أبعد منه في غيرها ، وعلى نوع هذا الأثر يتوقف مصير العالم بلا ريب في المستقبل القريب

ولا نزاع في أن تتبع الأثر الذي انتجته الحرب في العالم من أهم نواحي الثقافة العامة ، ونحن من الوجهة السياسية على الخصوص لا نستطيع أن نفهم منشأ الحركات الدولية الحديثة ، ولا أن نتبين مبادئها ومراميها دون أن نرجع في هذا كله إلى ما تمخضت عنه الحرب الكبرى . والكتاب الذي اضطلع بتعريبه الأستاذ بدران فأنجز مهمته على خير ما يرجى ، كفيل بأن يعطيك فكرة واضحة قوية عما خلفته تلك الحرب « فهو خلاصة تاريخ العالم في دور من أدوار الانتقال لا يكاد يختلف عن الفوضى في شيء » ، ومؤلفه أستاذ متضلع في التاريخ الحديث ، ملم بتياراته واتجاهاتها ، ولذا كان شديد التنبؤ لما أحدثته فيها الحرب ، واضح الفكرة في تتبع الحوادث ، حسن الاداء في عرضها ، مما يجعلك تقرأ الكتاب في يسر ولذة ، ومما يجعلك تغتبط أشد الاغتباط أن ترى مثل هذا الكتاب في متناول قراء العربية

أما عن الترجمة ، فلقد تجلت شخصية الأستاذ بدران فيها قوية متينة ، فما تكاد تشعر إلا كأنك تقرأ الأصل ، فليس هناك غموض أو التواء في التعبير أو أية صعوبة في الآداء مما يصادفه المرء عادة في الكتب المترجمة ؛ هذا إلى انتقاء دقيق للفظ العربي المطلوب مع الحرص على الايجاز وإيراد المعنى في صورة واضحة . والحق أشهد أن الأستاذ بدران قد وفق في تعريبه إلى خير ما يطمع فيه المعرب المخلص النابه

هنا ولقد ختم الأستاذ المعرب الكتاب بفصل من عنده هو « العالم بين يونيه سنة ١٩٣٠ ويونيه سنة ١٩٣٦ » ، تكلم فيه عن النزاع بين الصين واليابان والمسألة الحبشية والحركة النازية وحوادث البلقان والشرق الأدنى ، وهو فصل ممتع حقاً رأينا فيه الأستاذ بدران كمؤلف حريصاً على الاتقان والتفوق حرصه على دقته فيما عرب مع صعوبة تناول مثل هذا الموضوع المتشعب في مثل هذا الحيز الصغير ، وإنك لتقرأ هذا الفصل الأخير من الكتاب فتحس كأنك قرأت كتاباً كاملاً وتعجب كيف استطاع الأستاذ أن يلم بأطراف موضوعه في مثل هذا الاتقان

الخفيف

العالم المسرحي والسينمائي

الحروب الصليبية

على ستار سينما رويال

لناقد «الرسالة» الفنى

أنصف سيسل دى ميل الشرق فى فلمه الأخير «الحروب الصليبية» فى شخص صلاح الدين الأيوبى سلطان مصر، فدل بذلك على أن روحه روح فنان لم يتملكها التعصب ويحيد بها عن طريق الحق والواجب فى تسجيل التاريخ على شريط السينما

فهو قد صور بطلنا الشرقى فى الصورة المعروفة عنه من الشجاعة والنبل، صوره رجلاً يأبى الوصول إلى أغراضه عن طريق الخسة والدناءة، ويترفع عن وسائل الغدر والخيانة، فى حين أن الكثيرين من كتاب الغرب إذا ما عرضوا لشخصية شرقية مهما أيد التاريخ والحوادث عظمتها لم يتركوها دون مغمز، بل منهم من يخلق لها الحوادث المخزية ويروح يبذل جهده لالصاقها بها، ويصور الشرق والجو الذى يحيط بالقصة فى أشنع الصور وأشدها إلى النفس

فانصاف سيسل دى ميل لصلاح الدين والشرق عمل جدير بالتقدير لا سيا وأنه صور الشرق فى أوج عظمته عند ما كانت الامبراطورية المصرية فى أقوى أيامها وبلاد الغرب فى همجيتها

ليس القراء فى حاجة الى أن نقدم لهم هـذا المدير الفنى العظيم، فهو أحد أركان النهضة السينمائية فى أمريكا وأحد دعائمها، وله ماض حافل بالأفلام الهائلة الرائعة، ولكنى إذا تحدثت عنه لا يسعنى إلا أن أشرح رأيه فى السينما؛ فهو يرى أن السينما فن المجموعات وانها لم تخلق لتعالج الموضوعات البسيطة أو الموضوعات الاجتماعية التى تعرض للانسان فى حياته الخاصة، وإنما خلقت لتعالج الموضوعات التى تشغل شعوب العالم والتى تتمثل فيها قوى الجماعة. فهى أليق ما تكون للروايات الاستعراضية أو الروايات التاريخية التى تتجلى فيها العظمة والقوة

ولهذا كان دى ميل يعمد دائماً إلى التاريخ يستلهمه مادة لقصصه السينمائية، ولا يختار من الوقائع والحوادث إلا ما يتلاءم مع العظمة والأبهة الكاملة وما يحتاج إلى مصروفات باهظة

وأنت إذ تشهد أى فلم من أفلامه تعجب كيف استطاع هذا الانسان أن يدير الفلم على هذه الصورة من الدقة وأن يخلق حول القصة الجو الصادق

وهذا الرجل إذ يعمد إلى التاريخ لا يتقيد بالحوادث التاريخية إلا أنه يتصرف تصرفا معقولاً ويحافظ أشد المحافظة على الجو التاريخى. ومهارته لا تقف عند حد خلق الجو التاريخى الصادق وإظهار العظمة والأبهة، بل تتعداه إلى اختيار القصة التى تساير التاريخ وتلازمه، كما تحوى كثيراً من المواقف التمثيلية البديعة

وأفلام دى ميل تدل على أنه رجل يميل إلى ما له علاقة بحوادث المسيحية فهو أدار «بن هور»، «علامة الصليب» ثم «الحروب الصليبية» فهل لهذه النزعة علاقة بأنه يقلب إحدى حقائق التاريخ الثابتة، وهى أن الصليبيين لم يأخذوا عكا عنوة وإنما سلمت بعد اتفاق عقد بينهم وبين صلاح الدين؟ لا أظن. وإنما الموقف التمثيلى بعد حرب الدبابات التى أظهرها اقتضى ذلك فلم يحجم عن تجاهل هذه الحقيقة كعادته

قلت إن موضوع الفلم بديع وقد أمكن أن يساير التاريخ إلى حد معقول، ولكن ذلك لم يمنع دى ميـل من أن يخالف بعض الحقائق التاريخية، وستكون قصة الفلم موضع حديثنا فى العدد القادم، وسوف نقارنها بالتاريخ كما نقارنها بقصة ايفانهو Ivanhoe للكاتب الانجليزى المعروف والترسكوت التى تحدث فيها عن صلاح الدين وريكاردس والتى اقتبس منهـا دى ميل الموقف الذى يقطع فيـه ريكاردس قطعة الحديد بسيفه ويقطع صلاح الدين كذلك قطعة الحرير بسيفه أيضاً

أما المجهود الفنى الذى بذله دى ميل فهو هائل، فالمناظر فى غاية الروعة ومعدات الجيش كاملة ممـا أكسب الفلم قسطا من الحقيقة. وهو قد أعطى صورة صادقة لهجمات الصليبيين على

عكا ودفاع المسلمين عنها . فلقد جاء فى كتاب « صلاح الدين الأيوبى وعصره » تأليف الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد وهو حجة فى تاريخ المماليك فى حديثه عن حصار عكا :

« وقد أبلى فى ذلك الشأن بلاء حسناً شاب من صناع دمشق فانه أدخل من التحسين على صناعة النار ما جعلها تحرق آلات الحصار المنيمة التى كان الفرنج يطلونها بطلاء يمنع تعلق النار بها . وكان أشد الآلات على المدينة الدبابات ، وهى أبراج عالية ذات طبقات يركبها الجنود وتسير على عجل وفى مقدمتها حديد قوى فتصطدم بالأسوار فتصدعها ، ثم يعمل الجنود المجتمعون بها فى الأسوار فيهدمونها

وقد تمكن ذلك الشاب المجتهد من احراقها باختراع سائل يرميه أولاً فى قدور على هذه الدبابات ثم يقذف بعد ذلك النار فيلتهب ذلك السائل ولا يقاوم ناره شىء » اهـ

ورواد السينما يشهدون لسيسل دى ميل أنه أعطى صورة صادقة لكل ما ذكره الأستاذ فريد وأنا أعجب من دقة هذا المدير الفنى فى تصوير الحصار والهجوم هذا التصوير الصادق

كذلك لا أنسى الموقعة التى قامت بين جيش ريكاردس وبين جيش صلاح الدين بعد أن دخل الصليبيون عكا فقد كانت صورة جميلة لحرب الفروسية والشجاعة والأقدام ، وقد تضاءلت أمام أعيننا الحروب الحديثة التى بدت قذرة أثيمة فى وسائلها وأغراضها

والتصوير دقيق والزوايا التى أخذت منها المناظر تدل على مهارة كبيرة ، والشخصيات التى اختارها تطابق فى كثير الشخصيات التاريخية ، وما عرف عنها ولاسيما شخصية ريكادوس وصلاح الدين والراهب . ومن المواقف التمثيلية الرائعة موقف صلاح الدين أمام جميع الملوك المسيحيين وهم يقولون له « نحن ملوك عديدون » فيجيب بعظمة « وأنا ملك واحد »

أما ملابس صلاح الدين ففيها كثير من الأخطاء مما يدل على أن واضع النماذج Designer لم يدرس الملابس الاسلامية ، فقد ألبس صلاح الدين عباءة ملكية من القطيفة تشبه فى كثير عباءة ملك فرنسا وهذا اللباس غريب عن مصر والشرق ولباس الرأس غريب كذلك ، فصلاح الدين كان يلبس فى غير الحرب العمامة دائماً وهو لم يلبس العقال لأنه كردى لا عربى

وعند ما ظهر صلاح الدين فى خيمته ومعه أسيرته أميرة نافار وزوجة ريكاردس شاهدنا فتاة تعزف على القيثارة وهذه القطعة الموسيقية رومانية وليست عربية والعرب والمصريون استعملوا من القطع الموسيقية العود والناى والمزهر (نوع من العود) وربما القانون ، أما القيثارة فلم تكن أبداً بين القطع التى استعملوها

ولقد اتخذ المسيحيون الصليب شعاراً لهم فلم يقلدهم المسلمون فى اتخاذ الهلال شعاراً ، فاتخاذ الهلال شعاراً انما شاع فى أيام الامبراطورية التركية . وليس هنالك ما يمنع أن يضع صلاح الدين الهلال على رأسه ودرعه ، ولكن ذلك ليس معناه أن الهلال كان شعاراً كالصليب كما يفهم من الفلم

إن دقة تصوير الفلم لريكاردس طبقا لما جاء فى التاريخ على أنه ملك شجاع لا يعبأ بمظاهر الملك ، مندفع لا يفكر فى النتائج البعيدة ، ولم يكن بالقديس الذى يعبأ بأمر الدين كثيرا ، لم ترق فى أعين الانجليز ، ولذلك منعوا عرض هذا الفلم فى بلادهم

والفلم عظيم وهو أقوى من فلم « كليوباترا » وأقل من فلم « علامة الصليب » ، ولكن يجدر بالمصريين أن يشهدوه ليروا عظمة صلاح الدين الذى كان يستمد قوته من مصر

يوسف نادرس